14 me Année No. 655

Lundi —21—1—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٥٥ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٧ صفر سنة ١٣٦٥ — ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

فى الحـــــرم

للأستاذ عباس محمود العقاد

ركبنا البحر ونحن لا نعلم على التحقيق أين نلقى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، لأن برنامج الرحلة لا يشير إلى المكان

فمن الجائز أن يكون فى جدة ، لأنها الميناء الذى ينتقل منه جلالته إلى يخت المحروسة ، ولجلالته قصر منيف فى أرباضها هو القصر المعروف بقصر خزام

ومن الجائز أن يكون فى مكة المكرمة ، لأن اليخت يصل إلى جدة قبل سفر جلالته بيومين

فإذا كان استقبال البعثة الملكية فى جدة فلا عمرة ولا إحرام ، وإذا كان الاستقبال فى مكة المكرمة ، فقد وجبت العمرة ووجب الإحرام

ولكن كيف السبيل إلى الإحرام ؟ وكيف السبيل إلى خلع المخيط فى الشتاء ، وإن كان الجو فى مكة أدفأ من جو القاهرة بدرجات ؟

إننى ألبس الصوف شتاء وصيفاً منذ خمس وعشرين سنة ، وإذا صح أن « الصوفى » منسوب إلى الصوف ، فليس على ظهر الأرض رجل أحق منى بهذه الصفة ، فكيف السبيل إلى التحلل من هذه الصفة التى لصقت بالموصوف ، فلا فكاك منها ولا فرار؟

جاءنا النبأ فى عرض البحر بأن صاحب الجلالة عاهل الجزيرة العربية يستقبلنا فى قصره العامر بمكة المكرمة ، فنوينا الفدية ، ونوى أصحابنا الإحرام ، ولم يبق منى بملابسه غير الأستاذ عوض البحراوى بك وزير مصر المفوض فى المملكة السعودية ، لأن الإحرام لا يلزمه ، وإنما يلزمه أن يطوف بالكعبة عند مغادرة مكة طواف الوداع

وقد خصصت الحكومة السعودية قصر « الكندرة » بجدة لتبديل الملابس قبل السير إلى الحرم الشريف . وتولى الإشراف على راحة البعثة ومن معها صاحب المعالى الشيخ يوسف ياسين وزير الدولة ، وصاحب العزة الأستاذ فؤاد شاكر مدير المطبوعات . فلما تهيأ أصحابنا للسفر تحرك الركب بالسيارات ، فكان من نصيبى الركوب فى سيارة الوزير المفوض عوض البحراوى بك ، وهو رجل فاضل عرف أهل البلاد كما عرفه أهلها ، فانعقدت بينه وبينهم صلات المودة والزمالة ، وارتفعت بينهم الكلفة كل الارتفاع فيما عدا المراسم التى تقضى بها المعاملات الدولية ، وقد عبر الطريق مرات فعلمت منه كل ما احتجت إلى علمه من معالمها وأحوالها ، ووصلت إلى مكة بزاد غير قليل من المعرفة العملية بالحجاز .

* * *

هذه جبال مكة

وهذا جبل حراء

بلغناه بعد ساعة ونصف ساعة من السير المتدل فى السيارة ، ومررنا إليه بمناظر كثيرة نرى أمثالها فى بلادنا ، ولا سيما بلدى الذى نشأت فيه ، وأعنى به أسوان : جبال وبطاح ومراع يتخللها العشب فى الأودية والسفوح ، وبعض الجبال يلبح لنا بألوان المعادن التى يحتويها ، وبعض البطاح ينم على مجارى الماء فى باطنه القريب

كل ذلك مألوف نرى أمثاله حيث نشأنا على مقربة من صحراء أسوان ، أما الجديد كل الجدة على النظر وعلى النفس فهو غار حراء

هو قمة مرتفعة فى جبل ، كأنما بنيت بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى ، ولكنها عسيرة المرتقى لا يبلغها الصعد فيها إلا من شعاب وراء شعاب

أخبرنى من صعدوه أنهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتقاه ، وأن القليل من الناس يصمد فى صعوده إلى نهايته العليا ، حيث كان الرسول عليه السلام يتنسك ويبتهل إلى الله

والحق أن الرؤية غير السماع

والحق أن ما يلمحه الناظر فى نظرة خاطفة قد يعيى الكاتب بوصفه فى الصحف والأسفار

والحق أننا قرأنا ما قرأنا عن الجبل وعن الغار ، ثم نظرنا إليهما ، فعلمنا أن القراءة قد تركت الكثير من فراغ النفس لتملأه هذه النظرة العابرة فى الطريق

مررنا به عابرين كما كان سكان البلاد يمرون به غادين رائحين فى غفلة عن ذلك الرجل الفرد الذى يأوى إليه ويسكن إلى غاره .

كانوا فى غفلة عن ذلك الرجل المتوحد فى سبيل التوحيد ، كما كان العالم كله فى مثل تلك الغفلة وفى مثل تلك الظلمات

ولكنها كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور ، فلما انقضت مدتها لم يبق فى الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار ، أو جاهل بآثار تلك الساعات التى كان يقضيها فيه بالليل والنهار

وحسبك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتقاه لتحيط بعض الإحاطة بتلك النوازع المرهوبة التى كانت تنهض بالرسول فى صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأياماً بعد أيام

كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث المحتدمة فى نفسه الشريفة ، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة أن تدفع بالعالم كله فى طريق غير طريقه ، وإلى غاية لم تكن له من قبل فى حساب ، فلولا لاعج من الشوق الإلهى ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف

إن اللواعج التى حملت الرسول إلى مرتقى الغار هى السر الروحانى الذى استجاش العالم كله بعد ذلك فى حركة دافقة تقتحم السدود وتخترق الأسوار والحدود

وكل أولئك كان فى نشأته الأولى خاطراً فى قلب رجل وحيد يتفرد فى سبيل التوحيد

وكل ذلك السيل الجارف إنما تجمع قطرات قطرات عند هذه القمة العالية

كل ذلك كان فى هذا المكان

* * *

وعبرنا خاشعين مطرقين ، وسكتنا لأن مهبط الوحى هنالك قد ألهمنا السكوت

مكان آخر عند الكعبة كان له فى قلوبنا مثل هذا الخشوع ومثل هذا الرجوع مع الزمن إلى أيام الرسالة وأيام الجهاد

ذلك هو موقف الدعاء الذى كان الرسول عليه السلام يختار الوقوف فيه كلما طاف بالكعبة ودعى إلى الله

أنت هنا لا ريب فى مقام قام فيه ذلك الرسول الكريم ، ذلك السر السرمدى الذى تتعلق به مقادير التاريخ ومصائر الأمم وضمائر بنى الإنسان ، ذلك الإنسان الذى يقترن اسمه فى صلوات الألوف بعد الألوف باسم خالق الكون العظيم

أنت هنا تقف حيث وقف وتدعو حيث دعا وتنظر حيث نظر وتحوم بنفسك حيث حام فى اليقظة لا فى المنام

قيل لنا : هنا يستجاب الدعاء

قلنا نعم : هنا أخلق مكان أن يستجاب فيه دعاء ، وألهم الله كلا من الواقفين معنا أن يدعو دعاءه وأن يستجمع فى الدنيا والآخرة رجاءه ، وساق إلى لسانى هذه الدعوة فدعوت : اللهم أولنى ما أريد لى وللناس ، واجعل الخير كل الخير فيما أريد لى وللناس

وما بى من حاجة فى الحياة إذا استجيب هذا الدعاء

* * *

منظر ثالث أخذنى بجماله فى جوار البيت الحرام، وهو منظر الحمام الآمن الوادع فى ذلك المقام

لا يخشى ولا يفزع ، بل يظل طوال نهاره فى طواف على الأرض وطواف على الهواء

وأعجب ما سمعت ورأيت أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات

وقد سمعت بهذه الخاصة فى حمام البيت قبل أن أراه ، فلما رأيته فى طواف العمرة وطواف الوداع تحريت أن أتعقبه فى كل مذهب من مذاهب مطاره ، فإذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور

أدب الناس فى هذا المقام المهيب نعرف سره ونعرف مصدر الوحى منه إلى القلوب الآدمية

أما أدب الطير فى هذا المقام فسره عند الله

* * *

وأمن الحمام يذكرنى بأمن السائلين فى جوار الكعبة وجوار المسجد الحرام

إنهم ليتدفعون حول الزائرين ولا يتجملون كما يتجمل الطير فيقطع بعضهم رزق بعض ، ولا يدعون لمن يريد أن يعطى سبيل العطاء

وهم فى أمان لا يهانون ولا يصيبهم الأذى من الشرطة فى جوار البيت الذى يأمن فيه الخائفون

وحسن هذا وايم الله

حسن أن يأمن المساكين كل سطوة فى حرم الأمان ، وأحسن منه أن يجيئهم الوازع من القلوب والعقول لا من العصى والسياط

فإن كان فى تهافت السائلين على صغائر الدنيا غضاضة ، فإن فى هذا الأمان لقداسة البيت العتيق ، وإنه لمن القداسة أن يتعلم الإنسان كيف يجيب من يسألونه ، وهو يدعو الله ويرجو أن يستجاب .

عباس محمود العقاد

حق تقرير المصير

لأهل ليبيا وبرقة

للأستاذ أحمد رمزى

فى أحد شهور عام ١٩١١ ، روع العالم الإسلامى والعربى ، بخبر اعتداء صارخ ، قامت به إيطاليا ، على القطر الطرابلسى ، بغير إعلان حرب وبدون مسوغ ، ولم يكن هناك نزاع أو ما يشبه النزاع ، بل هناك أمن وسلام ، ولم يعلم الناس بأمر مفاوضة انقطعت أو أمر اختلاف على مبدأ أو رأى أو قاعدة مما تختلف عليه الأمم والشعوب فيتخذ ذريعة للحرب ، بل لم يسمعوا بشىء أو بعض الشىء مما يحضر الأذهان لمثل هذا العدوان ، وينبه العقول لقدمه .

* * *

وإنما سيرت إيطاليا بوارجها وجحافلها ، واستيقظ أهل مدن طرابلس وبنغازى ودرنة الآمنة ، على أصوات المدافع وجللها المتفجرة ، تقذف عليهم الحمم والموت فى عقر دارهم . فيالله ! عندئذ وجمت النفوس — كنا صغاراً لا نعقل من الأمر شيئاً ، ولكننا لمسنا الألم والأسى ، مرتسمين على وجوه الآباء والأهل والعشيرة والجيران ، فحزنت قلوبنا لحزنهم وتألمنا لألمهم .

كنا صغاراً نلعب ونلهو — فتركنا اللهو وقاطعنا اللعب ، وشعر كل منا ، بأن ساعة فاصلة فى حياته قد دقت ، نعم كان وقع الاعتداء شاملا ، وكان الجرح عميقاً ليس من الجراح التى تبرأ وتلتئم وتنسى مع الزمن .

وسرت بين الناس موجة دافعة ، من تلك الموجات التى تملأ النفوس والمشاعر ، وتخفق لها القلوب ، لرد العدوان ، وارتجت مصر من أقصاها ، فمن كتب عليهم القتال من المجاهدين قاتلوا وقتلوا ، ومن لم يقدر على تحمله جاد بالمال عن نفسه وبنيه . وأتى المجاهد أنور ومعه حفنة ممن باعوا أنفسهم فى سبيل الله ، وصمدت عرب طرابلس وعرب برقة وعلى رأسهم السيد أحمد السنوسى ، ليكتبوا بدمائهم ملحمة من ملاحم الملثمين والموحدين فى دفاعهم وجهادهم واستماتتهم عن أرض أندلس ، فواجهوا الموت

وعاينوا الهزيمة ، كما لاح لهم الظفر والمجد ، وقاتلوا وانتصروا واستشهدوا ، وامتلأت أيديهم بالعتاد والسلاح وأسرى العدو .

***

وانتهت الحرب بقيام حرب أشد هولا ، هي حرب البلقان ، فخفتت أصوات المجاهدين ، واتجهت الأنظار لمعارك في جبهة مقدونيا ، وتساءل الناس عن المصير .

أما مقدونيا فرثاها شوقي بقوله :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

وأما ليبيا وبرقة فقد استحوذ عليهما الطليان ، ورتل قائل بشعر قديم(1) فقال :

أحقاً خبا من جو رُندة نورها
وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليلى أن رُندة أقفرت وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلت عروشها ودارت على قطب التفرق دورها
ترى للأسى أعلامها وهى خشع ومنبرها مستعبد وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها وزائرها فى مأتم ومزورها

كلا لم تدم تلك المحنة ، ولم تصبر على الضيم نفوس أبت إلا أن تعيش فى ظلال الكرامة والعزة ، وقامت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ، ودخلت إيطاليا الحرب ، فارتجت البلاد ، وغمرتها تكبيرة المجاهدين ، والدعوة إلى الخلاص ، وبدأت ملحمة جديدة من تلك الملاحم الخالدة فى تاريخ العروبة ، التى تقاتل فيها فئة صغيرة فئة كبيرة — فيأتيها النصر من عند الله .

***

لقد فرحت مصر وفرحنا بمعارك درنة ، وعين زارة(2) وغيرها ، من التى منّ الله بها على المجاهدين والمرابطين وذوى البأس فى قتال الطليان ، وكان ذلك إبان الحرب التركية عامى ١٩١١ — ١٩١٢ . أما أيام الحرب العظمى فقد سار المجاهدون فيها من نصر إلى نصر ، بل كان كل يوم يمر يأتى إليهم بنصر جديد من عند الله ، ولم تمض ١٩١٥ إلا وقد زحزحوا الطليان عن برقة ، واستعادوا فزّان ، واقتحموا حصونهم ومعاقلهم واحداً بعد الآخر ، واستحوذوا على أسلحتهم وسياراتهم وأسروا كتائبهم المرتزقة ، من سود وحبش وغيرهم ، وساقوهم بأسلحة الطليان لقتال الطليان ، وتلك والله مقدرة لأهل برقة وليبيا .

وتتبعوا المنهزمين وسدوا عليهم المنافذ والطرق ، وفى يوم أصبحت العاصمة تحت أزيز رصاصهم ، وغدا الساحل تحت سيطرتهم ، فأتتهم المؤن والذخائر من حيث شاءوا .

فهل رأيتم دفعة كهذه الدفعة ، أو قوة من المستضعفين يملؤها الايمان والثقة فى النفس والدعوة إلى الحق والقتال فى سبيل الله ، عملت فى القرن العشرين عملا يشبه هذا ؟ إنها وايم الله وقفة رائعة ...

***

وانتهت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٨ ، وتدخل الانجليز بين الطليان وأهالى البلاد فاعترفوا بنظام ليبيا ومسراطة وأقروا إمارة برقة ، ووقعوا المعاهدتين وضمنوا استقلال الداخل ، وخيل للناس أن عهداً من الطمأنينة والأمن قد أشرق ، كان هذا وإيطاليا تلبس لباس الديمقراطية وقتئذ .

وفى يوم من أيام موسولينى ، بعد أن اغتصب الحكم فى بلاده ، عبث الثعلب المستأسد بمواثيق بلاده وضماناتها وقيودها ، وحنث بالايمان المأخوذة ، وأثار حرباً ضروسا مهلكة ، يحاول بأساليبها إبادة شعب بأسره ، كانت تعليماته وقراراته وأوامره واضحة لا شبهة فيها ، فليراجعها من يشاء ، يجدها فى كتبهم وما نشره قوادهم .

أمامنا ما كتبه فولبى عن عهده ؛ وما أذاعه جراتزيانى ، وما خطه بادوليو ، فليقرأ كل من يشك فيما نكتب أو تحدثه نفسه أننا ننطق عن الهوى .

وكان أمامهم شعب أبى ، يرغب أن يحيا حياته على النحو الذى يريده هو ، لا كما يريد الغير أن يكون عليه ، قد صمم أن يعيش بغير أن تفرض عليه سيادة روما وسياطها شعب يأنف أن تبسط عليه شخصية غريبة عنه ، غير الشخصية المنبثقة من روحه وإيمانه وتاريخه وكتاب الله ، أمة لا ترضى بلغتها وثقافتها بديلا ولو أعطيت الكون بأكله ، وهى لا تتراجع أن تدفع العدوان بما لديها من شجاعة وصبر وجَالدة .

(1) من مراثى الأندلس ومن نظم أبى جعفر بن خاتمة فى حوالى سنة ٩٠٤ هجرية ، أوردها الأمير شكيب أرسلان فى كتابه : (الحلل السندسية) . (2) تبعد ١١ كيلومتراً من مدينة طرابلس وهى واحة .

قابل هذا الشعب ، صدمة الخيانة بشجاعة نادرة ، رأى الحرب تفرض عليه فى دياره ، فواجهها كما يواجهها كل مقاتل كريم كتبت عليه التضحية فقدم بنيه وأحفاده ، ضُيق عليه الخناق بحصار من البر والبحر ، فتحمل وصبر ، أوذى فى نفسه ومعاشه وماله ودكت بيوته ، ولكن لم ينزل على حكم ظالميه ، ولا طوى مطلباً من مطالبه ، ولا تراجع عن مبدأ من مبادئه .

واتبعت إيطاليا سياسة العنف والتشريد ، فلم ترع شيخاً ولا مقعداً ولا طفلا ولا رضيعا ، خربت المنازل وأفنت قبائل ، وحولت بقاعا عامرة فجعلتها صعيدا جردا .

وفى تلك الحقبة المظلمة ، والعالم لا يعرف شيئا ، عن مأساة أهل ليبيا وبرقة ، ظهر عمر المختار ، وكلنا قد سمع عنه ، وعن عراكه وكفاحه وجهاده ، فاسألوا أنصاره ورجاله ، ينبئوكم عن حوادث عشرين عاما متتالية ، والحرب سجال ، يوم لك ، ويوم عليك .

هذا هو الشعب الأبى الكريم الذى حررته الديموقراطية فى الحرب الأخيرة ، واتخذت من اسمه عنوانا ومثلا لتحرير الشعوب المظلومة المغلوبة على أمرها . والذى جمعت من أفراده ورجاله المتطوعة ، وحاربت بهم ، وقالت للعالم هأنذا قد أرجعت الحق لأهله ، وأنقذت أول شعب وقع العدوان عليه ، وأزلت أثر الظلم والطغيان عن عاتقيه .

* * *

وترقب أهل البلاد نسمة الخلاص ، وباتوا يعلقون الآمال ، فماذا يراد بهم اليوم ؟ إننا لنسمع الكثير من اللغط . فمن قائل بعودة هذه الأرض البائسة إلى سادتها الطليان ، ومن قائل سلموها للروس ، وآخر يقول بانتداب الغير عليهم كأن هذه البلاد خلو من السكان .

إنه ليهمنا نحن معاشر الأمم العربية ، شأن برقة وليبيا ، ويهمنا شعب هذه البلاد . لماذا ؟ لأننا منه وهو منا ، إنها لصلات الدم والقربى والثقافة والتاريخ الحى ، لا التحجر الجامد ، ثم ما يوحيه هذا التاريخ المشترك من ذكريات الجهاد والنصر والهزيمة .

إننا نعبر عن رأيه ونقول : هذا الشعب لا يريد شيئا مستغربا أو فوق متناول يد الإنسان ، إنه يريد أن ينعم بحدوده وبلاده وموقعه الجغرافى واستقلاله وحريته — أى بتقرير مصيره — فهو يطلب كيانا تحت الشمس ، كغيره من عباد الله ، شأنه شأن بقية الشعوب الصغيرة .

فهل تجاب دعوته ، وهل يحسب لتضحياته حساب ، وهل يعترف بجهوده ؟

أم ستعرض بلاده للبتر والتقسيم ، ويوضع مصيره وحريته ليضارب بها فى سوق توزيع مناطق النفوذ .

الله يشهد أن هذه الأرض فقيرة ، وأن تجربة إسكان الأوروبيين التى قامت بها إيطاليا لم تنجح ، فهل يقنع هذا الأقطاب الثلاثة بإعادة الحق لذويه أم ترد إلى سيطرة إيطاليا أو وصايتها نيابة عن الأمم المتحدة ؟

أظن أن المنطق الأولى يقول : إن الأمم العربية ومنها شعوب الأرض الحرة بأكلها ، لن تقبل ولن تسلم بعودة شعب شهيد ، قد ذاق مرارة الاضطهاد إلى سيطرة جلاديه .

ونحن وإن كنا لا نصدق هذا ، ونجده بعيداً عن المثل العليا ، التى أعلنتها الدول المتحدة ، لا نر غضاضة على أنفسنا ، أن نصارح الأمم التى تسيطر على الأرض ببعض الحقائق فنقول :

إن حق أهالى هذه البلاد الشقيقة فى تقرير مصيرهم لا ينازع وأن إقرار استقلال البلاد وإيجاد حكومة ديموقراطية ، أمانة فى يد الأمم المنتصرة ، حسب وعودها المتكررة .

كان عدد سكان ليبيا وبرقة العرب فى مستهل عام ١٩١٠ أكثر من مليون نسمة ، وقد هبط هذا العدد إلى أقل من النصف ، على أثر سياسة التشريد التى اتبعتها الحكومة الفاشستية فكأن هذا الشعب قد بذل من الأنفس والأرواح دفاعاً عن كيانه واستقلاله ما لم يبذله الشعب الإيطالى طوال قرن من الزمن ثمنا لتحريره . فهل رأيتم شعبا يضحى بنصف عدده فى سبيل مثله العليا ؟

هذا هو الشعب العربى فى ليبيا وبرقة .

أحمد رمزى

القنصل العام السابق بسوريا ولبنان

في إرشاد الأريب

إلى معرفة الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٢٣ —

ج ٧ ص ٢٣٦ : حدث السمعاني عن أحمد بن سعد العجلي قال : كان السلطان نازلا على باب همذان فرأيت الأديب الأبيوردي راجعاً من عندهم ، فقلت له : من أين ؟ فأنشأ يقول ارتجالا :

ركبت طِرفي فأذرى دمعه أسفا   عند انصرافي منهم مضمر الياس

وقال : حتام تؤذيني فان سنحت   جوائح لك فاركبني إلى الناس

وجاء في الشرح : سنحت جوائح : جرى فأنك باليمن .

قلت : (سنحت سوانح لك) أي خطرت على بالك خواطر أوخطرات . في التاج : سنح الرأى والشعرلى: عرض لي أو تيسر. وفي الصحاح : سنح لي رأى في كذا أى عرض .

وقد يراد بالسوانح جمع السانح ، وهو ما كانت العرب في القديم تتيمن به . ومن أمثالهم : (من لى بالسانح بعد البارح) والسانح ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك ، والبارح ما أتاك من ذلك عن يسارك ، ومنهم من يتشاءم بالسانح ويتيمن بالبارح ...

لم أجد هذين البيتين ومقاطيع كثيرة في (الإرشاد) وفي (الوفيات) في دوان الأبيوردى المطبوع في بيروت سنة ١٣١٧ . ولهذا الشاعر الأموى ميمية خالدة ألهمه الله إياها في (الحروب الصليبية) لم تسعد بها تلك الطبعة . ولم يذكر منها في (الإرشاد والوفيات) شيء . وقد ذكرها العلامة النويري في (نهاية الأرب[1]) قال : « قال أبو المظفر[2] الأبيوردى لما استولى

(١) جـ ٥ صـ ٢٢٣ . كان العلامة الأستاذ السيد طه الراوى سأل هنا الضعيفَ في المهرجان العلائي — والسائل أعلم من المسئول — عن مظنة هذه الدرة فلم أتذكرها وقتئذ .

(٢) في (نهاية الأرب) : المظفر ، وهو أبو المظفر ، كما ذكر ابن خلكان .

الفرنج على البيت المقدس في سنة (٤٩٢) قصيدة[1] منها » وروى اثنين وعشرين بيتا . يقول الأموى في هذه الخالدة المخلدة :

فايها بني الإسلام ، إن وراءكم   وقائع يلحقن الذرى بالمناسم[2]

أتهويمة في ظل أمن وغبطة   وعيش كنوار الخميلة ناعم

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم   ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

يسومهم الروم الهوان وأنتم   تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وتلك حروب من يغبْ عن غمارها   ليسلم يقرعْ بعدها سن نادم

أرى أمتي لايشرعون إلى العدى   رماحهم والدين واهي الدعائم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى   وتغضى على ذل كماة الأعاجم

فليتهم إذ لم يذودوا حمية   عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى   فلا عطست إلا بأجدع راغم[3]

دعونا كم والحرب ترنو ملحة   إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تراقب فينا غارة عربية   تطيل عليها الروم عض الأباهم

* * *

ج ٥ ص ٢٣٣ : قال : (أسامة بن مرشد بن منقذ) ، في أخيه يحيى :

بالشام لى حدث وجدت بفقده   وجدا يكاد القلب منه يذوب

فيه من البأس المهيب صواعق   تخشى ومن ماء السماء قليب

(١) كانت وفاة الأبيوردى سنه ٥٥٧ فهل نظم هذه القصيدة وهو صغير أم نظمها بعد ذلك التاريخ .

(٢) (إيها) للكف والسكوت و (ويها) للاغراء والتحريض . وقد روي اللسان والتاج هذا البيت لحاتم الطائى شاهدا للأولى :

أيها فدى لكم أمى وما ولدت   حاموا على مجدكم واكفوا من اتكلا

وروياه في (ويها) شاهدا للمغرية المحرضة . .

(٣) في نهاية الأرب للنزى — بالنون — وهي للبرى بالباء . في اللسان : البرة الحلقة في أنف البعير من صفر أو غيره ، وإذا كانت البرة من شعر فهى الخزامة . في الصحاح : قد خششت الناقة وعرنتها وزممتها وخطمتها وأبريتها هذه وحدها بالألف إذا جعلت في أنفها البرة .

قلت : لئن أذعنت ... فلا عطست . الجواب هو للقسم وقد جاء هنا للشرط . وما أظن أن الأصل : (إذا أذعنت) فهذا الاستعمال في كلام المحدثين كثير .

فارقت حتى حسن صبرى بعده   وهجرت حتى النوم وهوحبيب

وجاء فى الشرح : حدث أى رجل فتى .

قلت : جدث ، وهم يعنون من فيه . قال الحماسى (متمم ابن نويرة) :

فقال أتبكى كل قبر رأيته   لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

وقال الحماسى (مسلم بن الوليد) :

قبر بحلوان استسر ضريحه   خطرا تقاصر دونه الأخطار

فى التاج : ابن برى : ثوى أقام فى قبره .

* * *

ج ٦ ص ١٦٠ : ومن شعره (الجوهرى صاحب الصحاح) :

يا صاحب الدعوة لا تجزعن   فكلنا أزهد من كرّز

فالماء كالعنبر فى قومس   من عزه يجعل فى الحرز

فسقّنا ماء بلا منة   وأنت فى حل من الخبز

وجاء فى الشرح : الكرّز اللئيم الخبيث ، وفى الأساس : لا أحوجك إلى كرز أى إلى غنى لئيم .

قلت : (فكلنا أزهد من كرْز) إن اللئيم لن يكون زاهدا دع عنك أمر القافية . وربما عنى الجوهرى كرز بن جابر الفهرى أو كرز بن أسامة العامرى أو كرزا التيمى ، وهم صحابيون (رضوان الله عليهم) أو كرز بن وبرة وهو تابعى (عليه رحمة الله) أو زاهدا من زهاد زمانه اسمه كرز . والكرز هو كما نقل فى الشرح من الأساس ، وعبارته هى « لا أحوجك الله إلى كرز » ومن معانى الكرز ما ذكر الإمام موهوب الجواليق فى كتابه (المعرب)[1] ص ٢٨٠ :

الكرز البازى ، وهو الرجل الحاذق ، وأصله بالفارسية (كرّه) قال ابن دريد : الكرز الطائر يحول عليه الحول من طيور الجوارح ، وأصله (كره) فعرب فقيل : كرز .

* * *

ج ١٣ ص ١٩٤ : ... اذهب بهذين إلى الكسائى حتى يتناظرا بين يديه ثم يخبرك لمن الفلح منهما .

وجاء فى الشرح : الفلح الفوز ، أقول : وربما كانت الفلج أى النصر .

قلت : هى الفلج . فى الأساس : فلجت على خصمك ، ولمن الفلج والفلج . وفى السادسة والعشرين الحريرية وتعرف بالرقطاء : « من لف لفه فلج وغلب » . والفلح يحمل من المعانى أكثر من الفوز الذى فسر به . فى التاج : الفلح والفلاح الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال والنجاة والبقاء فى النعيم والخير . وفى النهاية : حىّ على الفلاح : الفلاح البقاء ، والفوز والظفر أى هلموا إلى سبب البقاء فى الجنة والفوز بها وهو الصلاة فى الجماعة .

* * *

ج ٨ ص ٤١ : (أفضل الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الملك فى الحسن أحمد العطار الهمذانى) :

صبرا فأيام الهموم تزول   والدهر يعطيك المنى وينيل

لا تيأسن إذا ألم ملمة   إن الشدائد تعترى وتحول

لا تشتغل بالعسر واطو مشمرا   بسط الفيافى والشباب مقيل

والبس سواد الليل مرتديا به   إن التجلد للرجال جميل

حتى تنيخ العيس فى كنف الملا   حيث التحرم بالنجىّ كفيل

وجاء فى شرح البيت الثالث : ويريد بكون الشباب مقيلا أنه فى حياة المرء كالقيلولة .

قلت : (لا تيأسن إذا تم ملمة) فى (المغنى) : ويكون الفعل بعدها ماضيا كثيرا ومضارعا دون ذلك ، وقد اجتمعا فى قول أبى ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع[1]

(بسط الفيافى والشعاب مقيل) ومن طوى بسط الفيافى فالشعاب فنادقه لنامه ومقيله ... والشعب بالكسر — كما فى القاموس — : الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن الأرض أو ما انفرج بين الجبلين .

(حيث التحرم ، بالنجاح كفيل) فى الأساس : وتحرم فلان بفلان إذا عاشره ومالحه ، وتحرمت بطعامك ومجالستك أى حرم عليك منى بسببهما ما كان لك أخذه .

* * *

(١) طبعته (دار الكتب المصرية) ، بتحقيق وشرح الشيخ أبى الأشبال أحمد محمد شاكر ، و، تقديم الكتاب بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام .

(١) فى الايجاز والاعجاز للثعالبى : كان الأصمعى يقول : هو أبرع بيت العرب .

ج ٩ ص ٨ : فكتب إليه المهلبي : وصل كتابك يا أخي ... المتضمن نفيس الجواهر من بحار الخواطر ، الحاوي ثمار الصفاء من منبت الوفاء . وفهمته ، ووقع ما أهديته من نظم ونثر ... موقع الري من ذي الغلة ، والشفاء من ذي العلة ، والفوز من ذي الخيبة ، والأدب من ذي الغيبة .

وجاء في الشرح : الأدب التأديب . قلت : عندي أن المهلبي قال : (والغنم من ذي الغيبة) ويعزى إلى امرىء القيس :

لقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

***

ج ٥ ص ١٣ :

فإن يك حرب بين قومي وقومها فإني لها في كل نائبة سلم

قلت : تمثل البديع الهمذاني بالبيت في إحدى رسائله وهو من قصيدة .

والرواية هي (وإن تك حرب) في اللسان : السيرافي : الحرب أنثى ، وحكى ابن الأعرابي فيها التذكير ، والأعرف تأنيثها ، وإنما حكاية ابن الأعرابي نادرة ، في التاج : ودار الحرب بلاد المشركين الذين لا صلح بيننا معشر المسلمين وبينهم ، وهو تفسير إسلامي .

***

ج ٨ ص ٢٣١ :

القائل القول الرفيع الذي يَمرع منه البلد الماحل

قلت : في القاموس : مرع الوادي مثلثة الراء مراعة ومرعا أكلأ كأمرع ، وفي الصحاح : قد مرع الوادي بالضم وأمرع أي أكلأ فهو ممرع ، وفي اللسان والتاج : وقيل : لم يأت مرع وقال ابن الأعرابي : أمرع المكان لا غير .

***

ج ١٣ ص ٢٠٦ :

قد عزمنا على الصبوح فبادر قبل أن تضحى السماء المخيله

قلت : (قبل أن تضحى السماء مخيلة) وهي الخبر . في الأساس والسماء مخيلة للمطر : متهيئة له ، وقد أخالت السماء ، وخيلت وتخيلت ، وخايلت ، وسحابة مخايلة إذا رأيتها خلتها ماطرة .

***

ج ١٥ ص ٢١٥ :

يصوب على العافين مزن بنانه فيُكبت حسادا ويثبت أنعما

قلت : (فيَكبت) هناك الكبت لا الإكبات .

في الأساس : كبت الله عدوك كبه وأهلكه ، ومن المجاز : فلان يكبت غيظه في جوفه . في التاج : في التنزيل (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) أصل الكبت الكبد فقلبت الدال تاء ، أخذ من الكبد وهو معدن الغيظ والاحقاد فكأن الغيظ لما بلغ بهم مبلغه أصاب أكبادهم فأحرقها ، ولهذا قيل للأعداء : هم سود الأكباد . وفي الكشاف في تفسير (ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) : أو يكبتهم أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ، ويقال : كبته بمعنى كبده[1] بالغيظ والحرقة ، وقيل في قول أبي الطيب (لأكبت حاسدا وأرِى عدوا[2]) هو من الكبد والرئة .

قلت : يقال للأعداء : هم زرق العيون كما يقال لهم سود الأكباد . في الكشاف :

إن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب ، لأن الروم أعداؤهم ، وهم زرق العيون ، ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين ...

(١) الأساس : كبدته : أصبت كبده .

(٢) اللسان : وريته وريا أصبت رئته فهو مورى ، وفي الصحاح : ورى القيح جوفه يريه وريا أكله

من كلام الامام الزمخشري : إذا أردت أن تكبت عدوك فازدد فضلا في نفسك .

على هامش النقد:

شيلوك الجديد
أو
قضية فلسطين

مسرحية للأستاذ باكثير

الأستاذ سيد قطب

هذه المسرحية من عمل الأستاذ «على أحمد باكثير» صاحب مسرحيات: «مملكة السماء، والفرعون الموعود، وقصر الهودج»؛ وقصص: «سلامة القس، وا إسلاماه»... أصدرتها «لجنة النشر للجامعيين» فى سلسلتها التى بلغت إلى اليوم أربعاً وثلاثين حلقة، معظمها لأسماء شابة أبرزتها اللجنة، وكشفت عن مواهبها، وهيأت لها فرصتها للظهور، والإنتاج المفيد؛ ولعلها كانت وشيكة أن تطمر، أو أن تنتظر طويلا حتى تنال حقها الطبيعى فى الميدان الأدبى. وذلك فضل للجنة ليس باليسير.

ومسرحية «شيلوك الجديد» عمل أدبى يجىء فى إبانه، ليلقى على «قضية فلسطين» فى هذه الأيام ضوءاً منيراً كشافاً، وليصورها على حقيقتها التاريخية والواقعية، وليرسم الحل الناجع لها، وهو الحل الذى اهتدت إليه جامعة الدول العربية بعد شهر من ظهور المسرحية. وحسب المؤلف — وهو فرد — أن يلتقى فى تفكيره مع أبرز رجال الجامعة العربية فى حل قضية فلسطين!

وهذه المسرحية — من الوجهة الفنية البحتة — ليست أحسن أعمال الأستاذ باكثير؛ ولكنها من الجهة الأخرى تعد أكبر عمل أدبى تصدى لقضية فلسطين منذ نشأتها إلى اليوم...

إنها تقرير حى عن هذه المأساة، لا يسرد القضية سرد التقريرات؛ بل يعرضها عرضاً حياً على المسرح، فيكشف عن حقيقة مطامع الصهيونيين فى هذه البلاد المقدسة، وعن وسائلهم الخسيسة والجهنمية فى تحقيق هذه المطامع، وعن نواحى الضعف التى يستغلونها فى جسم الأمة العربية أفراداً وشعباً، وعن مدى مشاركة السياسة البريطانية فى هذه الوسائل، وهى مشاركة كانت كلية سافرة فى وقت من الأوقات، وما تزال إلى اليوم تعمل، ولكن فى حذر ومن وراء ستار؛ لأن القوانين والإجراءات المالية والنظامية التى سنتها لا تزال باقية تخدم القضية الصهيونية أجل الخدمات، وتهيئ لها امتلاك الأراضى، بعد أن تضيق الخناق على الاقتصاد العربى، وتجعله مضطراً لأن يمد يده إلى الاقتصاد الصهيونى، أو إلى الشرك الصهيونى بتعبير أدق!

ولا تخلو المسرحية — بعد هذا — من عرض لوحات حية من المشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية، والغرائز البشرية تتصارع وتتزاحم، وإن كان المؤلف — على عادته دائماً — يغلّب عواطف الخير والطهر، ويمكن للأريحية والنبالة... وذلك نضح نفسه الطيبة على أبطاله وقصصه

وهو إذ يصور الوسائل الخسيسة العجيبة التى تلجأ إليها الصهيونية لسلب أموال العرب وشبابهم!!! ويستعرض المكايد والدسائس المحبوكة التى تستخدمها، لا يكون الأمر مجرد حوادث ودسائس تستعرض؛ ولكنه يتعمق صميم النفس اليهودية، فيبرزها «نموذجاً بشرياً» واضح السمات متميز الملامح. وهذه المواضع فى المسرحية هى أجودها من الناحية الفنية. ولو أن المسرحية كلها فى مستوى هذه المواضع لارتفعت إلى مستوى شكسبير، فى رواية «تاجر البندقية». فطبيعة النفاذ إلى صميم الشخصية الإنسانية تكاد تتساوى فى هذه المواضع المحدودة!

وأخيراً يهتدى المؤلف إلى الحل الحاسم الذى اهتدت إليه الجامعة العربية أخيراً... يهتدى إلى سلاح المقاطعة الحاسمة البائة، التى تخنق الصهيونية فى فلسطين خنقاً. وقد ذهب المؤلف إلى أبعد الحدود، ففرض تخلى العرب عن فلسطين كلها، وضرب نطاق من الحصر الاقتصادى عليها. فما لبثت الصهيونية أن اختنقت فجاءت تطلب الصفح والمغفرة، وتتخلى عن مطامعها فى الوطن القومى ليرفع العرب عنها هذا الخناق المميت.

* * *

ولست أشك لحظة فى أن هذه المسرحية تقدم لقضية فلسطين أعظم خدمة فى طوق عمل أدبى واحد أن يقدمها، بل فى طوق عمل سياسى ضخم أن ينهض بها؛ ذلك أنها لا تدع «قضية

فلسطين » جملة رنانة ترد في الخطب الحماسية ، ثم تنقضي مناسبتها فتبرد وتتلاشى ... إنما تحيلها حقائق ووقائع حية ، وتردها أموراً عملية محسوسة ، في الوقت الذي تثير فيه الأريحية الإنسانية ، وتوقظ فيه النخوة العربية ، وتكشف عن الوسائل والدخائل في الصراع بين العرب والصهيونية ، وتوازن بين القوى الحقيقية التي يملكها الفريقان في الميدان ... تكشف ذلك كله كما لم يكشف من قبل أبداً .

وأنا أحد الذين كانوا يزعمون لأنفسهم أنهم ممن يهتمون بقضية فلسطين ويتتبعون خطواتها ، ويهتفون بها هتاف المتحمسين لها ... وقد تضمن ديواني الأول منذ أكثر من عشر سنوات تحية لأبطال فلسطين جاء فيها :

عهد على الأيام ألا تهزموا ... فالنصر ينبت حيث يهراق الدم
في حيث تعتبط الدماء فأيقنوا ... أن سوف تحيوا بالدماء وتعظموا
تبغون الاستقلال ؟ تلك طريقه ... ولقد أخذتم بالطريق ، فيمموا
وهو الجهاد حية جشامة ... ما إن تخاف من الردى أو تحجم
إن الخلود — لمن يطيق — ميسر ... فليمض طلاب الخلود ويقدموا
وطن يقسم للدخيل هدية ... فعلام يحجم بعد هذا محجم ؟
الشرق . بالشرق ! تلك دماؤه ... والغرب . بالغرب ! يغريه الدم
الشرق . ويح الشرق ! كيف تقحموا ... حرماته الكبرى وكيف تهجموا
غرتهمو سنة الكرى فتوهموا ... يا للذكاء ! فكيف قد غرتهمو !
سنة ومرت والنيام تيقظوا ... فليعلموا من نحن أو لا يعلموا !

* * *

أبطال الاستقلال . تلك تحية ... من مصر يبعثها فؤاد مفعم
إخواننا في الحال والعقبى معاً ... إخواننا فيما يلذ ويؤلم
مصر الفتاة ولن تزال فتية ... تهفو إليكم بالقلوب وتعظم
في كل مطلع وكل ثنية ... نار من الشرق الفتي ستضرم

أنا الذي زعمت لنفسي يوم نظمت هذه القصيدة ، وأيام تتبعت قضية فلسطين في مراحلها المختلفة أنني ممن يعرفون هذه القضية . أشهد أن رواية « شيلوك الجديد » قد أطلعتني على أنني كنت واهما فيما زعمت ، مغاليا في حقيقة اهتمامي بهذه القضية المقدسة ، فلقد كشف لي الأستاذ « باكثير » عن حقيقة وضع القضية ، وحقيقة العوامل التي تتصارع فيها ، بما لم يكشفه لي كل ما وصل إلى يدي عنها في خلال خمسة عشر عاما أو تزيد .

* * *

ولكنني أختلف مع الأستاذ « باكثير » في أمر واحد . ذلك أنه يبدو في سياق الرواية وفي ختامها أنه واثق بأن هناك شيئا اسمه « الضمير البريطاني » أو « الضمير الغربي » على وجه العموم . يبدو ذلك في فصل « المحاكمة » الذي عقده في نهاية المسرحية !

وأنا أخشى هذه الثقة على قضية فلسطين ، كما أخشاها على جميع قضايا البلاد العربية .

ليس للسياسة البريطانية ضمير . وليس للعالم الغربي شرف .

هذه هي العقيدة التي أعتقد أن من واجب كل كاتب وكل سياسي في هذا الشرق العربي أن يمكن لها في ضمير الأمة العربية بل في ضمير الشرق الذي ما نكب في تاريخه كله بمثل ما نكبته الثقة في الضمير البريطاني ، وفي الشرف الغربي !

ولن ينال الشرق العربي — أو الشرق عامة — شيئا من حقه ، ولن يعرف الطريق الصحيح والوسائل المجدية لنيل هذا الحق ، قبل أن ييأس اليأس الكامل من هذا الضمير البريطاني ، ومن هذا الشرف الغربي . وقبل أن يعتمد على نفسه اعتمادا كاملا في الصراع مع ذلك الوحش الأوربي — والأمريكي أيضا — ذلك الوحش الناعم الملمس ، واللبد على بعد مليمتر من هذا الأديم الرقيق !

وإذا كان الشرق العربي لا يزال مبتلى إلى اليوم بجماعة من الساسة المخدوعين في حقيقة هذا الضمير الغربي عامة ، فإن من واجب حملة القلم أن يكون لهم شأن غير شأن الساسة ، وإلا كانوا غير جديرين بالهبة الإلهية اللدنية التي منحها إياهم السماء .

سيد قطب

في جذور الشجرة العربية

للأستاذ عبد المنعم خلاف

يعمل ساسة العرب على طريقتهم فى توطيد أسس الجامعة العربية . والسياسة ليست دائماً ذات إيمان ... ونحن أفراد الشعوب العربية ينبغى أن يكون اندفاعنا إلى هذه الجامعة حركة ذاتية فردية مؤمنة تعمل دائبة سواءاً كانت السياسة تريد ذلك أم لاتريده ، وسواءاً كان السياسيون متحمسين أم فاترين. فالسياسيون كثيراً ما ينقلبون وينشون ويدسون ما اشتركوا فى بنائه حينما يهزمون فى المجال الشخصى الضيق ، وتتصادم المصالح الصغيرة وبزول العمل للمصلحة الكبيرة . فيجب دفعهم بأيدى الجماهير المستنيرة حتى يكونوا دائماً شاعرين بحرارة إيمانها وقوة دفعها لهم.

وفى بعض الأحيان يجتمع السياسى ورجل الدعوة والإيمان فى شخصية فتسير الأمور عندئذ فى أمان وتقدم ، ولا يخشى عليها من النكوص والتقلب والضعف ؛ لأن عناصر الإيمان والإلهام المتجدد وشبح النجاح المأمول فى تلك الشخصية من شأنها أن تحول بين الحركة وبين الارتداد والضعف مهما كان من عقبات ومغريات وعوامل تثبيط .

غير أن هذا النوع القيم من السياسيين لا يوجد كل حين . فيجب العناية والاهتمام والاحتراس من العناصر السياسية المحترفة التى تصطنع السياسة للحكم وشهوة الغلبة أو السيطرة أو الخيلاء ولا تعلم من أهداف السياسة إلا ما يحقق لها ذلك . ولا يكون ذلك الاحتراس إلا فى إعلان إرادة الرأى العام وإظهار أعماق شعوره وجلو أهداف إيمانه وتجديدها دائماً أمام عيونه ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الوسائل الثقافية والوجدانية التى فى أيدى الكتاب والأدباء المفكرين الذين يتعمقون الأشياء ويجلون دفائنها على أعين الجماهير جلواً يستهوى ويثير .

ومن الفطنة أن نعلم أن قيام الجامعة العربية على أسس فكرية ووجدانية يجب أن يسبق قيامها على الأسس السياسية ، لأن قيامها على الأسس الأولى هو من طبيعة الأشياء إذا أردنا أن نسير على قوانين النمو والتقدم والارتقاء مسترشدين الله فى إنضاج الثمار .

فالقلب هو أول ما يتكون فى الجنين ومنه تمتد الشرايين لتغذية الجسم الصغير الذى يتخلق منه الكائن الإنسانى أو الحيوانى . وكذلك عقدة البرعم التى فيها سر الشجرة ونوعها هى منطقة النمو فى النبات .

ذلك فى عالم الأحياء والمحسوسات وهو بذاته فى عالم الأمر والمعانى . فيجب أن نرعاه ونعرف له حقه ونؤدى له واجبه حتى لا نضل أو تلتوى بنا السبل أو يبطىء علينا نضج الثمرات المرجوة .

ومن الملحوظ فى الحركات السياسية الكبيرة التى تمت فى مراحل التاريخ ، أن كل حركة عظيمة كان بجوارها مفكرون يفلسفونها ويضعون لها أسساً تنهض فى أعماق الضمائر والعقول فتكون الحركة مدعمة بالإيمان والاستنارة .

فالبلشفية تقوم على فكرة وفلسفة وطدها كارل ماركس ولينين ، والنازية كذلك استمدت من فلسفة (نيتشه) وكان بجوارها (روزنبرج) ، والحركة الاشتراكية فى انجلترا يفلسفها الأستاذ (لاسكى) .

وهكذا تقوم الحركات السياسية الكبيرة دائماً على واضح الأسس الاجتماعية فى أعماق الوجدان والفكر .

والجامعة العربية لها فلسفة أو يجب أن يكون لها فلسفة ملخصة تنير طريق العربى إلى غايته وتجعل إيمانه بقوميته وحركتها السياسية إيماناً بصيراً مستنيراً . حتى إذا خاب جيل فى تحقيق الأهداف أتى الجيل الذى يليه فوجد الغاية صحيحة صالحة مركزة فى قضايا واضحة تستحق العمل لها فيعمل لها بحرارة واندفاع ذاتى غير ملق بالا إلى الخيبة السابقة إلا بمقدار أخذ العظة منها .

والأسس الفكرية للعربية الحديثة تلخص فى أننا « الأمة الوسط » بين أمم العالم جميعه من حيث المكان واللون والفكر .

فنحن فى المكان الوسط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب غير منازع ولوننا وسط بين الجميع . وقد أخذنا من بيض الشمال وصفر الشرق وسود الجنوب وحمر الغرب بحيث يأنس بنا الجميع ولا يجدون بيننا وبينهم ما يجدونه حينما يتلاقى الأبيض بالزنجى أو بالأصفر أو يتلاقى الأصفر بالزنجى أو بالأبيض وهكذا . وما دام فى الأرض فلسفة سياسية ظالمة تقوم على الفروق اللونية

بمناسبة تعديل المناهج في سورية

أسلوب جديد في التعليم

[مهداة إلى إمام المربين ساطع بك الحصرى]

للأستاذ علي الطنطاوي

لي أخ كان كلما غشي المدرسة الثانوية رق جسمه ونحل وعراه ذبول، فأعفيته منها وأبقيته في الدار سنوات ثلاثا لم ألزمه فيها مطالعة شيء من دروس المدرسة، وإنما كنت أدله على بعض كتب الأدب والتاريخ مما لايثقل عليه ولاينال من صحته، وما تجزل فائدته وتعظم المنفعة به، فقرأ فيما قرأ تاريخ الطبرى كله والأغانى ... فلما أزف موعد امتحان الكفاءة منذ سنتين قلت له: لو دخلت هذا الامتحان مع رفاقك فلعل الله يكتب لك النجاح. فأطاعني واستعد للامتحان شهراً واحداً ثم دخله فكان من الناجحين، على رغم أن الناجحين في تلك السنة كانوا دون الثلث، وعاد إلى مثل ما كان عليه، حتى كان امتحان الشهادة الثانوية (البكالوريا) هذه السنة، فدخله كما دخل الأول ونجح فيه أيضاً ...

هذا النجاح الغريب دفعني إلى التفكير في الموضوع الذي أكتبه اليوم، وجعلني أسائل نفسي فأطيل سؤالها: ألا يمكن أن نسهل للطلاب هذه الدراسة؟ وإذا كانت هذه الغاية وهي شهادة الكفاءة (والصحيح أن نسمي شهادة الكفاية) تدرك بمسيرة شهر واحد في طريق سهل لاحب، فعلام نمشي إليها ثلاث سنين في طرق صعبة معوجة من ينقطع فيها أكثر ممن يبلغ آخرها؟ أليس لنا بدّ من أن نضيع زهرة شباب أبنائنا في المدرسة لنعلمهم ما لا يكاد ينفعهم في حياتهم، إذا هم خرجوا منها، ولم يقدروا أن يشتغلوا بعده بما يشتغل به العامي الجاهل من أعمال اليد، وأشغال السوق؟ ألا يمكن أن نعلم كل طالب ما ينتفع به ويميل إليه ونعفيه من علوم يكرهها ولا يعتقد فائدتها له في حياته؟

والجنسية، فوضعنا رشحنا أن نكون الحكم بين الجميع، لأننا نرضى الجميع إذ أننا خليط من الجميع.

ونحن أمة الوسط في الفكر. وهذا يستلزم بسطاً في الحديث لا تفي به هذه العجالة. ولكننا نجتزيء بطرف منه: وأعني بالفكر جميع القوى العليا في العقل والروح. وقد ورثنا ذلك من كثرة التجارب والأحداث والحضارات الروحية والمادية التي مرت بنا، ففي مهود بلادنا وعلى ضفاف أنهارنا قامت أول الحضارات المادية وما زالت تقوم وتدول وتنتقل على هذه الرقعة التي تسمى اليوم الشرق الأوسط. حتى انتقلت إلى الغرب على يد اليونان والرومان في حضارتهم الأولى، ثم جاء عهد النهضة الأوربية بالحضارة الحالية وهي الحضارة الثانية فقط لهذه البقاع. والأولى هي حضارة الدولة الرومانية التي قامت على أسس عسكرية عنيفة ولم تتصل بالروح إلا بعد أن أخذت بـ «المسيحية» وهي وليدة الشرق أيضاً.

وعلى قمم جبالنا تعلقت قلوب أجدادنا بالسماء وبكت لله وأدركت وحدته واتصلت بها رسالات وحيه فأتت بالخير والبر والتفاؤل والاطمئنان والسمو بالانسان وكانت للانسانية بمثابة الأمومة الربية المسددة المرشدة.

وفي صحفنا كتب أول السطور بالقلم الهيروغليفي ثم الفينيقي الذي ابتدأ به التاريخ البشري والفكر العظيم والجهد العنيف يدون ويسجل ويختزل في تلك «القماقم» السحرية الصغيرة: الحروف والكلمات، فينتقل بذلك الفكر الإنساني إلى الرحلة الكبرى التي ترجم بها كلمات الله في الطبيعة، وبنى على أسسها علومه وآدابه إلى ما شاء الله أن يبنى.

فإذا كان حاضرنا سيئاً بفعل الجهالة والجمود وعدم إدراك رسالتنا بعد أن تقسمت العرب دول غريبة عن العربية، فإن ماضينا يبعث فينا الثقة بأنفسنا وبما فيها من استعدادات كامنة.

وإن مستقبلنا ينادينا أن ننهض لوصل الماضي بالحاضر بالمستقبل حتى نؤدي دورنا المنتظر من الأمة الوسط التي ترضى حكمها أمم الأطراف التي فيها دائماً الغلو والإسراف.

عبد المنعم خلاف

فقالت النفس : لقد أقمت بناءك على غير أساس ، وجعلت من هذه الشاذة قاعدة ، وأصّلت عليها أصلا . إن أخاك هذا وإن أخذ الشهادة فليس له علم من درس يوماً بيوم ، وسار على الجادة خطوة فخطوة ، ولم يقفز من فوق الأسطحة ولم يتسور الجدران ، وهذه العلوم كلها لازمة لا استغناء عنها ، وأسلوب التعليم صالح لا داعى لتبديله .

فرجعتنى والله إلى الشك وكدت أدع الموضوع . ثم فكرت فرأيت أن لكل عمل نتيجة ، ولكل مسير غاية ، والغاية من المدرسة إما أن تكون الشهادة أو العلم أو الإعداد لخوض لجّة الحياة والنضال عليها . أما الشهادة فلا بحث فيها لأنها عرض لاجوهر ، ووسيلة إلى غيرها لا يصح الوقوف عليها ، ولا القناعة بها ؛ وهى بعد كاسمها (شهادة) قد تكون مزكاة عادلة ، وقد تكون شهادة زور تعطى لغير أهلها ، وتمنح من ليس من مستحقيها . وما ينفع الفقير المفلس أن يشهد له الناس جميعاً بأنه الغنى ذو القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟ أما العلم فاسألوا المتعلمين ماذا بقى لهم من دروس الثانوية ، بل تعالوا أحدثكم ما جربته بنفسى وما شاهدت عليه تلاميذى ، ولقد كنت فى دراستى الثانوية مجلّياً دائماً أو مصلّياً ، ولم أكن فسكلا[1] ، ولقد اشتغلت بالتعليم الأولى والابتدائى والثانوى ، الأهلى والرسمى والدينى ، أربع عشرة سنة ، قبل أن ألى القضاء ، فى مدارس الشام والعراق ولبنان ، وعرفت الآلاف من الطلاب . وأقل ما أستفيده من هذا أنى إذا تكلمت أتكلم عن خبرة واطلاع .

أقول : إنى وجدت بالتجربة أنه لم يبق عندى الآن مما أمضيت فى تعلمه السنين الطوال ، إلا ما كان طبعى منصرفاً إليه من علوم الدين واللسان والتاريخ والفلسفة ، وما عدا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية (لا الطَّبَعية كما يقول بعضهم ...) فلا أكاد أعرف منه الآن إلا أشياء عامة جداً . أما التفاصيل والدقائق وأعيان المسائل فقد نسيتها كلها . ولو سئلت عما أعرفه من المثلثات (مثلا) لأجبْت صادقاً أنى لا أعرف إلا شيئاً اسمه الجيب والتجيب (تمام الجيب) والماس . لا أعرف ما هو على التحقيق ، حتى موضوع العلم على وجه التحديد فقد نسيته ، مع

(١) هو آخر خيول السباق .

أن علامتى فى السنة التى قرأنا فيها المثلثات كانت تسعاً من عشر وكنت المجلّى (الأول) فى صفّى (أى فَصْلى) أما الكيمياء العضوية فلا أعرف منها إلا أن فيها شيئاً اسمه (الميتان) وتركيبه جزء من الفحم وأربعة من مولد الماء أى الهيدروجين — وقد درست جغرافية بلاد الدنيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية ، وكنت مع ذلك كلما سمعت باسم مدينة جديدة يأتى فى أخبار الحرب أجدنى أجهل مكانها ، وأذهب فأسأل عنها الكتب والمصورات ، أستوى فى ذلك أنا ومن لم يقرأ الجغرافية قط[1] . وكل من عرفت من الطلاب هذه حالهم لا يستقرّ فى رؤوسهم إلا ما يختصون به أنفسهم ، وإخلاصات موجزة ، أفما كان خيراً لهم لو أقرأناهم هذه الخلاصات من الأصل ؟

ولست أقول ، دعوا هذه العلوم لا تقرئوها التلاميذ ، ولكن أقول إن هذا الخلط بين العلوم الكثيرة يؤدى إلى إضاعتها كلها ، وهذا سرّ ما نشكوه من ضعف الطلاب فى مصر والشام والعراق فى اللغة وهى أداة العلم كله ، وما نلمسه من عقم القرائح ، وفقد المخترع والباحث . ولو أنا رجعنا إلى طريقة أجدادنا الذين كانوا يتعلمون علمين أو ثلاثة فإذا أحسنوها شرعوا بغيرها لكان أجدى علينا . فمدارسنا إذاً لا توصل إلى الغاية العلمية النظرية ، فلننظر إلى الغاية العملية هل تبلغنا إياها ؟ هل تعد مدارسنا التلاميذ إعداداً جيداً للنجاح فى الحياة ، وضمان الكسب الطيب والعيش الرغد ، مع الخلق القويم والإيمان الدينى والقوى ؟ الجواب مشاهد ملموس هو أن مدارسنا لا (تكاد) تخرج اليوم إلا أطباء أو محامين أو موظفين . أما الوظائف فعددها محدود لا يمكن أن يتسع لكل المتعلمين ولا ينبغى أن يتسع لهم . أما الأطباء والمحامون فى دمشق فقد صاروا من الآن أكثر من اللازم بكثير ، وغدا جلّهم يقتنع بالكسب القليل . أما التجارة والزراعة وسائر طرق الرزق فإن أكثر أهلها أو كلهم ... ممن لم تخرجهم المدارس بل خرّجوا أنفسهم فى مدرسة الحياة الكبرى ، ولا نستطيع أن نَغْلُوَ فنقول بأن خريجى المدارس يمتازون من الناس بأخلاقهم الشخصية والاجتماعية ، أو أن المدارس جعلتهم طبقة مختارة ممتازة

(١) والأب أنستاس الكرملى يرى أن تسمى الجغرافية علم (التفريع) من قولهم فرع الأرض .

من طبقات الشعب بل إنهم كثيرهم من الناس ، منهم الصالح ومنهم الفاسد ومنهم من هو بين ذلك !

والسبب فى هذا كله أن نظام التعلم فى بلادنا كالبيت العتيق الخرب ، المختل الهندسة ، الذى لا يفتأ أصحابه يتعهدونه بالترميم والإصلاح ولكنهم لا يجرؤون على هدمه من أساسه وبنائه من جديد على هندسة صالحة ، ونمط صحىّ نافع . إننا نحبس التلاميذ ست سنين للدراسة الثانوية ، ونحشو رؤوسهم بمعلومات أكثرها لا ينفع فى الحياة . وماذا لعمرى استفدت أنا من دراسة المثلثات والهندسة النظرية و (حفظ) معادلات الكيمياء وقوانين الفيزياء فى القضاء أو فى تدريس الأدب أو فى فن الكتابة ، وتلك هى أعمالى فى حياتى ؟ سيقول قائل ، ومن كان يدرى أنك ستكون أديباً أو قاضياً ، أفما كان فى الإمكان أن تكون مهندساً أو صيدلياً ؟ بلى ، ولكن الدراسة العالية حددت طريقى فى الحياة ، فلماذا لم أحدده قبل ذلك بسنوات ؟

هذه هى المسألة ، كما يقول شكسبير . إن الدراسة العالية هى المقصودة بالذات ، وما قبلها ثقافة عامة هى بمكان المقدمة إليها والتمهيد لها ، أفلا يستطيع الشاب الواعى دراسة الحقوق مثلا ، من غير إحاطة بدقائق الكيمياء والفيزياء والرياضيات ؟ أو لا يجزئه ويكفيه أن يعرف عنها الشىء المجمل المختصر ؟ وطالب الطب هل يستحيل عليه تحصيله من غير معرفته بملل الشعر واختلافات الكوفيين والبصريين ؟ لقد شاهدنا محامين بارعين وقضاة لا يعرفون شيئاً من المشتقات ولا تحول التابع ولاصفات البروم ، وشاهدنا أطباء كباراً استطاعوا أن يعملوا عمليات فى شق البطن وفتح الجمجمة ، على جهلهم الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وشروط عمل اسم الفاعل .

* * *

فما العمل ؟ أنا أرى ، إذا كان فى الدنيا من يسمع رأيى ، أن نجعل مدة الدراسة الابتدائية والثانوية معاً سبع سنين على الأكثر يتمكن فيها الطالب من العربية بالمران والتطبيق وتنبيه السليقة لا بحشو رأسه بالقواعد وقتل وقته بمعرفة أوجه الإعراب حتى يقيم لسانه ويتنزه عن الخطأ الفاحش ، ويبصر مرامى الكلام ودقائق معانيه ، ويتعلم من دينه ما يمسك عليه إيمانه وخلقه ويرغبه فى الخير ويصرفه عن الشر ، ويمنعه الحرام ؛ ويعرف من الرياضيات الشىء العملى الذى لا يستغنى عنه من غير اشتغال بالنظريات المجردة ، وما لابد من معرفته من علوم الطبيعة وقوانينها الأساسية وأسرار المخترعات ، وأن يدرس الصحة والجغرافية والتاريخ العربى[1] وأن يعرف مبادىء لغة من اللغات الغربية وأمثال ذلك فما أردت الاستقصاء بل التمثيل .

فإذا تخرج الطالب منها عرضنا عليه فروع الجامعة ، فإذا اختار فرعاً منها حضرناه له فى سنتين أو ثلاث ، علمناه فيها ما يتصل به ، فيكون فى كل كلية قسم تحضيرى فيه من العلوم ما يحتاجه طالبها ، فيتلقاها الطالب برغبة فيها وحب لها لأنه هو الذى اختارها ، ووافقت هواه ، وظهر له النفع منها ، وبنجو بذلك من خلق شاعراً من حفظ طلاسم الرياضيات ، أو الرسوب دونها والانقطاع عن المدرسة وحرمانه التحصيل من أجلها ، وهو من بعد لا يحتاج إليها أبداً ، ولا يتعلم كل طالب إلا ما يحتاج إليه مع اختصار مدة الدراسة وتقوية الاختصاص ، وكسب الوقت الذى يستطاع الاستفادة منه فى تقوية الأجسام بالرياضة ، ومعرفة الوطن بالسياحات ، والعناية بالتربية الخلقية والوطنية ... ومن شاء بعد الاكتفاء بالدراسة الثانوية ودخول معركة الحياة لم نسلبه وقته وسلحناه بثقافة عامة يعلو بها مستوى السوقة وأصحاب المهن ، ومن أراد التخصص فتحنا له بابه ، وعجلنا له دخوله وقويناه فيه .

وهذا إيجاز للاقتراح والشرح حاضر إن احتاج إليه القراء .

أما التعليم الدينى فلنعد فيه إلى مثل الطريقة الأزهرية الأولى مع

---

(١) وهنا مسألة مهمة جداً لا أعلم أحداً نبه عليها أو انتبه لها ، هى أن تاريخنا السياسي الذى يدرس الآن فى مدارسنا سلسلة فضائح من انقسام إلى ثورات إلى قتل إلى استبداد . حاله فى ذلك كحال تواريخ الأمم كلها ، وإذا استثنيت أمثال العمرين وثالثهما ابن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين لم نجد من الملوك من تصلح سيرته لتكون قدوة ، والتاريخ العظيم الذى يجب تدريسه هو تاريخنا العلمى الفياض بالمكارم والمفاخر ، ولذلك عنى علماؤنا بتراجم الأفذاذ أكثر من عنايتهم بالتاريخ العام . ومن العلماء من أثر فى عصره أبلغ الأثر حتى وجب أن ننسب العصر إليه لا إلى خليفة الوقت كأحمد بن حنبل والغزالى وابن تيمية . هذا بعد أن يدرس كل تلميذ تاريخ بلده الذى يعيش فيه . وإن من أقبح العيب ألا يعرف الطالب العربى أين تقع سر من رأى وماذا فيها الآن ، وإلام صارت الكوفة ، وأن يعرف التلميذ الدمشقى تاريخ الثورة الفرنسية قبل أن يعرف من بنى القلعة وكم مرة احترق الأموى وأين أبواب دمشق ومن أنشأ حى الصالحية .

فرنسيس بيـــكن

لألفرد فيبر

للأستاذ عبد الكريم الناصري

في انجلترا [١] يتلقى الإصلاح الفلسفي طابع الخلق الانجلوسكسوني ، ويتخذ وجهة تختلف كل الاختلاف عن وجهة الحركة الإيطالية . فالعقل الإنجليزي الوضعي الرصين عديم الثقة بتقاليد الفلسفة المدرسية ، وبما تصل إليه الميتافيزيقا المستقلة من نتائج متسرعة . وهو يؤثر التصعيد المتدرج البطيء في طريق التجربة على النظر الإيطالي الذي يبلغ القمة بسرعة ، ثم لا يلبث حتى يهن عزمه ، ويفقد توازنه ، فيهوى في حضيض الشك . ثم إن هـذا العقل متوقف عند حقيقة واقعة ، وهي أن المدرسيين لم يساهموا قط في تقدم العلوم ، وأن هذه الفتوحات الفكرية إنما تحققت خارج المدرسة ، بل على الرغم منها .

أجل ، فإن العلوم مدينة بنجاحها لا إلى أرسطو ولا إلى أي مرجع تقليدي سواه ، بل إلى التأمل المباشر في الطبيعة ، والتأثير المباشر للواقع ، والفهم الواقعي المشترك . صحيح أن بحاث العلم التجريبيين لم يكونوا أقل مهارة في القياس والاستدلال من مناطقة المدرسة ، بيد أن استدلالهم يقوم على ملاحظة الواقع .

وكانوا — من جهة أخرى — إذا بدأوا من فرض أو تصور قَبْلي ، تحققوا منه بالتجربة ، كما فعل كولومبس ، ولم يعترفوا بصدقه حتى يظفر بهذا « التصديق » الذي لا مفر منه .

وهكذا نجدنا ، من جهة ، حيال فلسفة رسمية عاجزة عقيمة ، ومن جهة أخرى حيال تقدم مدهش في العلوم . وكان الاستنتاج الذي فرض نفسه على العقلية الإنجليزية العملية ، هو وجوب ترك التأمل القبلي والقياس المساء استعماله ، والأخذ بالملاحظة والاستقراء .

وهذا الموقف الذي أعرب عنه روجر بيكن في القرن الثالث عشر

(١) انظر الفقرة الأخيرة من مقالة (توماسو كمبانلا) المنشور في العدد (٦٤٦) .

إصلاح يسير فيها ، فقد ثبت أنها أنفع وأجدى ، دنيا وأخرى ، وأن تلك الثورة عليها حتى تم العدول عنها ، والقضاء على الجامعة الأزهرية ، كان فيها إغراق أدركناه الآن . وأنا أعرف الأزهر الجديد وأعرف كليات ثلاثاً أنشئت على غراره في دمشق وبغداد وبيروت علَّمت فيها كلها ، وأشهد لله شَهادة حق أن الأزهر القديم كان في الجملة خيراً منها ، إذ كان أهله يطلبون العلم لله وللعلم فصار أهلها يطلبونه للشهادات والوظائف ، وكانوا يصبرون على تلك الحواشي المطولات وإن تكن عقبات ، فصار هؤلاء لا يقرأون إلا خلاصات يجوزون بها الامتحانات . وكانوا علماء عاملين لديهم أهل تقى وورع في سمتهم وسلوكهم ، وسرهم وعلنهم ، فصار بعض المدرسين وأكثر التلاميذ ... صاروا على حال من عرفها فقد عرفها ومن جهلها فلا يسأل عن الخبر .

وأنا لا أعمم ولا أطلق القول ، وإنما أعني الكثرة ممن أعرف ، ولعل فيمن لم أتشرف بمعرفته خيراً لم يصل إليّ علمه ولا بلغني خبره — هذا على أن تكون المدارس الدينية بمثابة مدارس الاختصاص لا يدخلها الطالب إلا بعد أن يدرس هذه الدراسة الثانوية ويفهم علومها ويأخذ شهادتها ، لأنها ثقافة عامة يحتاج إليها عالم الدين وعالم الدنيا والموظف وصاحب العمل الحرّ .

* * *

ولا بأس بعدُ بارتياد مناهل العلم في غير بلادنا ، على أن يطلب فيها العلم المبني على المشاهدة . أما علوم الرواية وما أصوله عندنا ، كعلوم العربية فلا ، وهذه الحماقة التي كان أتاها الفرنسيون إذ أرسلوا شباننا يتعلمون العربية في باريس لا يجوز أن تعاد ، وحسبنا أن صَلينا نحن نارها ، وتجرعنا صابَها ، (ولا نزال نتجرعه ...) وأن أضحكنا الناس علينا ، وزدنا طلابنا على ضعفهم في لغتنا ضعفاً .

* * *

هذه كلمة صغيرة في موضوع كبير ، أعرف أنها تثير مناقشات وتحتمل جدالا ، وأنها لم تلم بأطراف الموضوع ولم تستوف البحث فيه وإنما هي تنبيه إلى فساد ، ودعوة إلى إصلاح ، أهديتها إلى إمام المربين ساطع بك الحصري ، لأنه مرجع هذا الفن أولا ، ومرجع كل أمر في وزارة معارف الشام ثانياً .

دمشق (المحكمة الشرعية) **علي الطنطاوي**

هو الذى أعلنه من جديد وبشر به ودعا إليه سَمِّيه فرنسيس بيكن Bacon بارون فيرولام[1] (١٥٦١ — ١٦٢٦) فى مؤلفاته المختلفة : « شرف العلم وتقدمه » و « آلة العلوم الجديدة » وسواهما .

والمشكلة هنا هى أن نبدأ مسعى العقل كله من جديد — أن نبنى العلم على أساس جديد كل الجدة Instauratim magna . فإننا إذا رمنا التيقن من طبيعة الأشياء الخفية ، فيجب ألا ننشدها فى الصحائف والكتب ، ولا فى ثقات المدرسة ، ولا فى التصورات السابقة والأنظار القبلية . ويجب قبل كل شىء أن نقلع عن تقليد الأقدمين الذين عاق نفوذهم تقدم المعرفة . فقد كان فلاسفة اليونان — باستثناء ديمقريطس وبضعة وضعيين — قلما يلاحظون ، وإذا لاحظوا لم يبعدوا عن السطح . وقد حذا المدرسيون حذو الأوائل فضربوا بالواقع عرض الحائط ، حتى ليخيل إليك أنهم فقدوا الشعور به .

هذا ، إلى أن معارفنا مليئة بسوابق الأحكام Prejudices ، فإن لنا أوهامنا وأهواءنا و « أصنامنا » — أصنام الجنس ، والكهف ، والسوق ، والمسرح — التى نفرضها على الطبيعة ، والطبيعة منها براء . فبما أن الدائرة خط منتظم يعجبنا انتظامه ، ترانا نستنتج أن أفلاك الكواكب دوائر كاملة . إنا لا نلاحظ أبداً ، أو لا نلاحظ إلا أسوأ الملاحظة ، فإذا نجا قوم من كارثة خمس مرات ، استدللنا من ذلك على أن قوى غيبية قد تدخلت فى الأمر ، ولم نحسب حساباً لخمس حالات أخرى لم ينج فيها قوم آخرون ، لخليق بنا أن نقول كما قال ذلك الحكيم الذى أروه فى بعض المعابد ألواح نذور علقها ناس نجوا من الغرق : « ولكن أين صور الذين هلكوا من بعد ما نذروا ؟ » . إنا نفترض عللا غائية ، ونفرضها على العلم ، ونحمل بذلك إلى الطبيعة ما ليس يوجد إلا فى الخيال .

إنا بدلا من أن نتفهم « الأشياء » نتنازع على « الألفاظ » ، التى يفسرها كل امرئ كما يهوى . إنا على الدوام نخلط بين موضوعات العلم وموضوعات الدين ، فلا نظفر إلا بفلسفة مشوبة بالخرافة ، ولاهوت مشوب بالهرطقة : « إن الفلسفة الطبيعية لم تلف بعد خالصة غير مغشوشة ؛ وإنما هى فاسدة مشوبة بالمنطق فى مدرسة أرسطو ، وباللاهوت الطبيعى فى مدرسة أفلاطون ، وبالرياضيات فى مدرسة أفلاطون الثانية ـ مدرسة أبرقلس وأصحابه ـ مع أن شأن الرياضيات أن تحدد الفلسفة الطبيعية ، لا أن تولدها أو تنشئها » .

ورجاء الفلسفة الوحيد فى هذه الفوضى من الآراء ، ومن الأنظمة القبلية يستقر فى الخروج على التقاليد اليونانية والمدرسية ، وفى تقبل المنهج الاستقرائى . إن ما تدعوه الفلسفة التقليدية « استقراء » يسير بالتعداد البسيط ويؤدى إلى نتائج غير يقينية ، وهو معرض للخطر بأتيه من مثال واحد يناقض تلك النتائج ، لأنه يبث فيها استناداً إلى عدد قليل غير كاف من الوقائع . أما الاستقراء الصحيح ، منهج العلم الحديث ، فإنه لا يسرع من بضع ظواهر متفرقة غير محققة إلى أعم البديهيات ، بل يدرس الوقائع والجزئيات فى عناية وصبر ، ويرتقى إلى القوانين بالتدريج وبغير توقف . وينبغى لنا عند وضع القانون من القوانين العامة : « أن نفحص وننظر أنه هل صيغ وفصل بحيث يتسع للأمثلة الجزئية التى استنبط منها فحسب ، أم هل هو أوسع وأعم ؟ فإن كانت الثانية ، فينبغى أن نلاحظ أنه هل يؤيد سعته وعموميته ، ويضمن لنا ذلك ، بأن يشير إلى جزئيات جديدة ؛ فلا نقف عند معروفاتنا السابقة ، أو نقبض على ظلال وأشكال مجردة .

***

من الغلو فى تقدير بيكن أن نعتبره خالق المنهج الإختبارى Experimemtal والعلم الحديث ؛ بل عكس ذلك هو الصحيح ، فقد كان بيكن نتاجاً للاحياء العلمى فى القرن السادس عشر ، وليست دعوته إلا النتيجة ، أو قل المغزى الذى استنبطه العقل الانجليزى من الحركة العلمية . ولكن إذا لم يجز لنا أن نعده منشئاً لمنهج التجريب والاختبار ، فلا أقل من أن نرد إليه فضل انتشال هذا المنهج من الحضيض الذى ألقاه فيه تحامل المدرسيين وإعطائه كياناً قانونياً ، إن صح هذا التعبير ، بأبلغ دفاع قيل فيه

(١) كان بيكن فى أول أمره محامياً ، ولكنه استطاع أن يصل — بسلسلة من المكائد والأساليب الدنيئة — إلى منصب « اللورد تشانسلر » الرفيع (رئيس قضاة إنجلترا ، وأيضاً رئيس مجلس اللوردين) . وقد عزل من منصبه بعد ثلاث سنوات بتهمة الارتشاء (المعرب) .

فليس بالأمر اليسير أن نجهر بما يفكر فيه الكثيرون ، ولا يجرؤ أحد على أن يعترف به حتى لنفسه .

بل وأكثر من ذلك . فإن « العلم » الاختبارى وطرائقه وإن كانت أنشئت قبل عهد بيكن بزمن طويل ، فإنه مع ذلك مؤسس « الفلسفة » الاختبارية ، وأبو الفلسفة الوضعية الحديثة ، من حيث أنه أول من أثبت[1] ، بأفصح القول وأبلغه ، أن الفلسفة الحق والعلم الحق مشتركا المصالح ، وأن الميتافيزيقا المستقلة عبث لا طائل وراءه . إنه ، وهو العدو المجاهر بعداوته للروح « الميتافيزيقية » ، ليرجو قراءه بصراحة : « ألا يحسبوا أنا نطمع فى إنشاء فرقة فلسفية ، كاليونان القدامى أو بعض المحدثين ، فما نقصد إلى ذلك ، وليس من رأينا ، بعد ، أن الآراء المخصوصة المجردة فى الطبيعة ومبادىء الأشياء ذات أهمية تذكر فى حظوظ النـاس » . ومن هنا فهو لا يعارض أرسطو فقط ، بل « كل رأى مجـرد فى الطبيعة » ، أى كل مذهب ميتافيزيقى لا يقوم على العلم .

وأيضا فإنه يميز بين « الفلسفة الأولى » و « الميتافيزيقا » . فالفلسفة الأولى تعالج التصورات والقضايا العامة المشتركة بين العلوم الخاصة ، وهى (بحسب قسمة بيكن الغريبة « المشتقة من قوى النفس الثلاث » : الذاكرة والخيال والعقل) ثلاثة علوم رئيسية : (التاريخ) الذى ينتظم التاريخ المدنى والتاريخ الطبيعى ، و (الشعر) و (الفلسفة) التى تنقسم عنده إلى اللاهوت الطبيعى والفلسفة الطبيعية ، والفلسفة الانسانية . أما « الميتافيزيقا » ؛ فهى القسم النظرى من الفلسفة الطبيعية ، وهى تنظر فى الصور (بالمعنى المدرسى) والعلل الغائية ؛ بينا القسم العملى من الفلسفة الطبيعية — وهو « الفيزياء » بالمعنى اللائق — ينظر فى الجواهر والعلل الفاعلية . على أن بيكن لا يعطى « الميتافيزيقا » كبير قيمة ؛ ويبدو كأنه يتهكم حين يسمى العلل الغائية « عذارى عواقر » ، ثم يخص بها هذه الصناعة . أما اللاهوت الطبيعى فهدفه الوحيد « تفنيد الالحاد » : فان العقائد موضوعات للايمان دون المعرفة .

إن هذا الأسلوب ، أسلوب التمييز بين العلم واللاهوت ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والوحى ؛ يضاد أساليب المدرسة على خط مستقيم . لقد وحدت المدرسية الواقعية القديمة بين الفلسفة واللاهوت . أما بيكن فإنه كالاسميين ، يطلب فصلهما إلى أقصى حد ممكن . وهو يبرر كونه طبيعياً فى العلم وغيبياً فى اللاهوت على أساس هذا التمييز المطلق . وقد حذا حذوه فى ذلك عدد من مفكرى الانجليز .

بيد أن المسافة ليست كبيرة بين إقصاء الغيب عن ميدان العلم ، وبين إنكاره وإبطاله : فإن توماس هوبز — من أصدقاء بيكن — يقول بضرب من المادية لا تكاد (محافظته) السياسية تفلح فى تغطيته وإخفائه .

(بغداد) **عبد الكريم الناصرى**

---

[1] أى قرر ، وليس بمعنى « برهن » (المعرب)

تصويب : ورد فى مقالة (كانالا) المنشورة فى العدد ٦٤٦ (التعليق رقم ٣ ص ١٢٦٢) اسم كتاب من كتب الفيلسوف هيوم على أنه « مقال فى الطبيعة الانسانية » ، والصواب « رسالة فى الطبيعة الانسانية » .

ذكريات عن أستاذي :

أمبرتو ريتشي

١٨٧٩ – ١٩٤٥

للأستاذ مصطفى القوني

[أمبرتو ريتشي « Umberto Ricci » الاقتصادي الايطالي ذو الشهرة العالمية . أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة روما ، وأحد مؤسسي معهد الزراعة الدولي . وأستاذ المالية العامة بجامعة فؤاد الأول ، بين سنتي ١٩٢٨ ، ١٩٤٠ . وأستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة اسطنبول بين سنتي ١٩٤٢ ، ١٩٤٥ كان ماراً بمصر ، عائداً من تركيا إلى بلاده ، وكان مريضا فبقي في سرير المرض أسابيع ومات في القاهرة في ٣ يناير سنة ١٩٤٦ ودفن في أرضها]

أعود اليوم بالذاكرة إلى عشر سنين مضت ، إلى يوم رأيت أستاذي « أمبرتو ريتشي » لأول مرة ، في أول درس حضرته عليه . كنا في مقاعدنا ننتظر . وما هي إلا لحظات حتى أقبل وئيد الخطى ، ممتلىء الجسم ، قصير القامة ، كبير الهامة . وجه أسمر فيه من سمات الشرق أكثر مما فيه من سمات الغرب ، ولحية قصيرة فيها من البياض أكثر مما فيها من السواد ، وعينان تطرفان وراء منظار سميك ، وتنبآن عما أضاع صاحبهما من نورهما في جريه وراء نور المعرفة ، وكأنما كان عليه ألا يستبدل نوراً إلا بنور ؛ ورجل لو رأيته ، دون أن تعرفه ، لما ترددت في أن تسائل مَن حولك : من يكون هذا « العالم » ؟ هذا هو أستاذنا « أمبرتو ريتشي » .

بدأ يعرض علينا موضوع العلم الذي جئنا نأخذه عنه عرضا سريعا ، وانتهى درسه الأول . وبدا لي أن ليس في كلامه من جديد . وسرت إليه ، ونحن خروج من قاعة الدرس ، واندفعت أقول له : « لقد درست هذا العلم من قبل ، ولست أدري ماذا علي أن أصنع في عامي هذا » قال متسائلا : « درسته ؟ وتعرفه كله ؟ » قلت : « حق المعرفة » فنظر إلى نظرة فيها كثير من العطف وفيها كثير من الإشفاق وقال : « اسمع يابني ! إن لي نحواً من ثلاثين عاما ، لا أكاد أذكر أن يوماً منها قد مر دون أن أفكر أو أقرأ أو أكتب شيئا في هذا العلم الذي تقول إنك تحيط به . ومع ذلك ... فإني لا أظن أني أستطيع أن أقول ما تقول » .

ومرت الأيام ، وتوالت دروس أستاذي ريتشي ، وتوالت عنايته بي : فكان يختار لي ما أقرأ ، ويسألني فيما قرأت ، ويفتح لي آفاقا جديدة للتفكير والتأمل . وبدأ نطاق العلم ينفرج أمامي ، وبدأ طريقه يتشعب ، هذا الطريق الذي كان يبدو لي ، فيما مضى واضح المعالم بيّن الحدود . وتزداد صلتي بأستاذي ، مع الأيام ، ويرى ما أنا فيه من حيرة ، ولكنه لا يقول لي عن ذلك شيئا . ويقارب العام نهايته ، ونحن نسير يوماً ، وإذا هو يقف ويسألني باسما : « هل تذكر ما قلت لي بعد درسي الأول ؟ ألا تزال تظن أنك تعرف موضوع علمنا كله ؟ » فخجلت مما كان من اعتدادي بنفسي وقلت له : « لست أدري ما ذا جرى . ولكن الذي أدريه هو أني أحس وكأني لم أعد أعرف شيئا » . فضحك وقال : « إني الآن سعيد . لقد أخذت بيدك إلى أول الطريق . لقد بدأت تعرف . إنه حق ذلك المثل الذي يقول ، لو عرف الإنسان أنه جاهل لكان هذا قدراً غير قليل من المعرفة . ولكني لست أدري هل تحمد لي ذلك في مستقبل أيامك ، أم سوف يساورك الشك أحيانا ، وأنت تضرب في هذا الوادي ، وادي المعرفة ، الشبيه بوادي التيه ، فتسأل نفسك : ما الفائدة ؟ ما الفائدة من كل ما أضعت من أيام شبابي في الضرب في هذا الطريق الذي لا ينتهي ؟ » .

وإنه ليعبر الطريق ذات يوم فتكاد سيارة تدهمه فيقص على الخبر . وكنت أعلم أنه لم يكن ، في ذلك الحين ، زوجاً ولا أبا ، وأنه لا تربطه بدنياه هذه الروابط التي كنت أظن أنها هي كل ما يفزع الناس من الموت فقلت له : « كنت أعتقد أنك لا تخاف الموت » ففكر قليلا ثم قال : « ألا تدري أن بين يدي كتابين لما أتمها . لو أني انتهيت منها لكان سيان عندي أن أموت أو ألا أموت » .

وتمر السنون وأزداد معرفة بأستاذي ، فأرى كيف رفعه علمه إلى حيث لا حدود ولا قيود ، إلى حيث يحس جوهر الأشياء

الذى يستتر وراء مختلف الصور : صور المذاهب والأوطان والأجناس ، التى لا ينفذ إلى ما وراءها إحساس عامة الناس . لقد كان « عالما » . والعلم قبس من نور الله ، لا شرقى ولا غربى .

لقد طالما تمنيت أن أعود فألقى أستاذى يوماً ما ، بعد غيبته عن مصر خمس سنين طوال ، فأحدثه عما أصنع بأيامى وعما تصنع بى الأيام . ولكنه يفد إلى القاهرة(١) ، فلا أراه على فرط ما كنت أتمنى أن أراه ، ثم هو يمرض ويموت دون أن أعلم من الأمر كله شيئا ، ودون أن أستطيع ، الآن ، شيئا سوى مثل هذه الكلمات .

مصطفى القونى

(١) لازم « الأستاذ ريتفى » طوال أيام مرضه ، وبقى إلى جانبه حتى لحظاته الأخيرة ، تلميذه الدكتور محمد توفيق يونس ، ولولا ذلك لحز فى نفوس تلاميذه الذين لم يعلموا بمقدمه أن يكون أستاذهم ، فى سرير مرضه ، قد أحس بالغربة ، فى بلد له فيه على مريديه الكثيرين حق الأبوة الروحية .

في الأدب الانجليزى

ماثيـــو أرنولد

Mathew Arnold

للأستاذ خيرى حماد

— ٤ —

آراؤه في التربية :

عند ما انتخب أرنولد لمنصب مفتش المعارف قامت هنـاك معارضة قوية من قبل رجال الدين . فقد كان هنالك اتفاق بين الحكومة والكنيسة يقضى بانتخاب أحد رجال طائفة الاكليروس لشغل هـذا المنصب العظيم . ولذا لم يكن من المستطاع انتدابه للتفتيش على مدارس الكنيسة ؛ بل اقتصرت مهمته على زيارة مدارس الحكومة والمدارس الأهلية .

وكان من واجبه مراقبة زمرة المفتشين لأن الحكومة وضعته رئيساً عليهم . وعندما كانت الحكومة تقصد تشريع قوانين جديدة وأنظمة حديثة لادارة المدارس كانوا يستشيرونه ويسيرون على ضوء آرائه ونظرياته . ومن أمثلة هذه القوانين الخاصة مشكلة تدريس اللغة الانـكليزية فى المدارس ؛ فكانت لمدة خلت موضوعا اختيارياً مثله كمثل الدروس الأخرى ، كعلم الجغرافية والعلوم الابتدائية الأخرى . ولـكن أرنولد حبذ تعليمها كدرس يجبر جميع الطلاب على تعلمه ودرسه فقد اعتبر كل نظام للتعليم العام ناقصاً إذا لم يبذل اهتماما كبيرا نحو لغة البلاد كشرط أساسى فى تعلم العلوم الأخرى .

وكانت الطريقة الرئيسية التى يعتمد عليها فى تنفيذ آرائه ، ووضعها موضع التجلة والاعتبار هى تقاريره السنوية التى كان يقرؤها نفر قليل من أفراد المجتمع الانـكليزى . وهذه التقارير تتضمن آراء قيمة ملذة فى بعض المواضع الطريفة . وقد استنار خلفاؤه بهذه التقارير ؛ فأصبحت طريقتهم واضحة وعملهم سهلا لا يحتاج إلى كثير صعوبة وإجهاد .

« وقد اهتم أرنولد اهتماما عظيما فى إدخال بعض العلوم الأولية التى يحتاج إليها الطالب كثيرا فى حياته العملية المقبلة فهى تهيئه لقبول جميع النظريات والتعاليم التى جاء بها العلم الحديث . ومع أن علم الحساب والكتابة والهجاء ضرورية جداً للطلاب إلا أنها لا تتعدى حدود الـكماليات بالنسبة إلى تهيئ الانسان لما يقبله من العلوم فى حياته المستقبلة . فقدرة القراءة لا تجعل من الفرد قادراً على تحضير المواد التى يحتاج إليها فى حياته المقبلة(١) » .

نصح أرنولد الطلاب بمطالعة الكتب التى تستحق القراءة . وفى رأيه أن دراسة الآداب من أهم العوامل التى يحتاج إليها الطلبة فى حياتهم . فهى تساعد فى تنمية ذوق الطلبة وقوة حكمهم وخاصة إذا حفظوا قطعاً من الشعر يحتاجون إليها فى تغذية أرواحهم والترفيه عن أنفسهم . واعتقد أرنولد بأهمية دراسة قواعد اللغة فى المدارس ودافع عن نظريته هذه بقوله : « إنى لأعلق أهمية كبرى على دراسة قواعد اللغة فى المدارس لمساعدتها الأطفال فى التفـكير وإشغال الناحية العقلية أكثر مما يحدثه علم الحساب ؛ فهى تعلم الانسان قواعد المنطق والمجادلة لأنها تختص بالـكلمات المحدودة لا بالأرقام والحسابات .

فالاعراب من أهم محتويات هذا العلم ولا يصعب على الطلبة دراسته قط إذا كان تعليمه بطريقة دقيقة منظمة . وقوة التحليل Gnalysis فى اللغة الانـكليزية تجعل من السهولة فى مكان عظيم على الطلبة أن يطلعوا على القواعد بكل سهولة بدلا من تعليمهم

(١) Fitch : The Grnald. P. 182

إياها بتلك الطرق العقيمة القديمة ، التي كانوا يجرون فيها مجرى اللغات الجامدة . ويسرني جداً أن أرى الأساتذة يمتنون بالطريقة التحليلية الحديثة في تدريس علم اللغة[١] » .

وكان الناس يعتقدون أن اللغات اليونانية ، واللاتينية والفرنسية لا تخرج عن كونها دراسات ثانوية يقوم بها المتقدمون في الثقافة والعلم . ولكن هذه الفكرة لم تكن لتتفق مع مذهب أرنولد في التربية والتعليم . فقد آمن بوجوب تدريس مبادىء هذه اللغات أو إحداها على الأقل في المدارس الابتدائية . وهذا الأساس يفيد جميع الطلبة الذين يقصدون الالتحاق بالكليات العالية والجامعات .

وأما الطلبة الآخرون الذين لا تساعدهم ظروفهم على متابعة دراستهم فان هذا الاطلاع ينفعهم في تفهم الحقيقة الراهنة . وهي أن هنالك لغات غير لغتهم وعلوماً غير علومهم .

وزيادة على ذلك فقد ارتأى أرنولد أن دراسة الرياضيات وعلم الفسيولوجيا والجغرافية الطبيعية والنبات هي من أشد الأخطاء التي يرتكبونها في نظام المدارس الابتدائية . فان من الحماقة تعليم الأطفال اصطلاحات علمية لا يتفهمونها ولا تستطيع أدمغتهم الفتية قبولها وإساغتها .

وأما الأساتذة فيجب أن يتوخى في انتخابهم مقدرتهم العلمية وميلهم إلى المطالعة ومتابعة الدرس، وقد كتب في أحد تقاريره: « إن الأستاذ الذي يستطيع أن يخلق في طلبته الميل لتوسيع أدمغتهم ليستحسن منه أن يزيد في معلوماته ومعرفته . وكلما استطاع أن يجعل آراءه العلمية واضحة أمكنه أن يجعل طلابه أكثر وضوحاً واتساعاً . وكم كان يسره أن يرى أحد الأساتذة الذين يشتغلون معه يتابعون دروسهم في إحدى الجامعات .

وكنتيجة للجدل الديني الذي قام في عصره شعر أرنولد بفقدان الشعور الديني في تلامذته ؛ ولذلك فكر في تدريس التوراة في الصفوف الابتدائية لمعالجة هذه الحالة . ولتنفيذ هذه الفكرة وضع أرنولد كتاباً جمع فيه الفصول السبعة والعشرين الأخيرة من إنجيل أشعيا وشرحها شرحاً يمكن طلابه من فهمها حق الفهم .

وكان أرنولد يميل إلى النظام التربوي المتبع في المدارس الفرنسية مع انتقاده إياها ببعض انتقادات لا تخرج عن جادة الصواب ؛ فلا يوجد هنالك توافق وتعاون بين مختلف درجات العلم والتعليم . ولذلك فان نظام المدارس الداخلية لم يكن مقنعاً . فان العريف الذي كان يعد مسئولاً عن سلوك الطلبة وأخلاقهم لم يكن في الحقيقة إلا واحداً منهم لا يسره أن ينم عن رفاقه أو يشي بهم .

وقد أعجب أرنولد بقلة النفقات التي يدفعها الطالب الألماني لمتابعة دروسه . فكان هنالك في بروسيا سلم تعليمي يمكن للطالب النابه ارتقاءه درجة إثر أخرى حتى يصل إلى القمة . وهذا النظام كان في رأيه أحسن نظام عرفته أوربا منذ القدم ؛ فكان يجمع إلى الحرية الانكليزية نظام الفرنسيين .

أما الجامعة فيجب أن تشمل ثلاثة فروع مختلفة ، الأول منها فرع التعليم العادي الذي يمكن لجميع الطلبة على اختلاف مراتبهم العلمية مزاولته والإستماع إلى محاضراته الكثيرة في أي وقت شاؤوا . والثاني يشتمل على بعض الدروس الليلية التي تعطى لرجال الأعمال أو الموظفين الحكوميين الذين لا يمكنهم حضور الدروس النهارية . والفرع الثالث هو فرع المراسلة الذي يضم إليه جميع الطلبة الذين لا تمكنهم ظروفهم من الحضور إلى المدينة والاستماع إلى المحاضرات .

فلسفته الدينية :

اعتقد غلادستون أن أرنولد قد جمع إلى الديانة المسيحية فكرة الإخلاص والتكريس القدس بطريقة لا يمكن لأصدقائه وأعدائه على حد سواء تفهمها وحل غوامضها . وأما بول فقد كتب عنه قائلا : « إن أرنولد وضع لنفسه هدفاً منطقياً معقولا ولكن تعابيره الجميلة كانت موانع هامة أمام تقدمه ونجاحه[١] » .

لم يكن نقد أرنولد للتوراة نقداً قوياً ولم يكن بحثه فيها بحثاً ناضجاً قيماً . وكتابه : « القديس بولس والبروتستنتية » لم يكن كتاباً دينياً حقيقياً . لكنه يخرج فيه على قواعد المسيحية الموروثة ، وعلى الكنيسة المتحدة أيضاً . فكان يؤمن بالمعجزات ويقف موقف الشك من شخصية الإله . فلم تكن عقائد الآخرين لتؤثر عليه أي أثر مهما كان ضئيلا .

أما كتابه « الأدب والعقائد » فيفوق سابقه بروعته وقوة

(١) Repsrt fsr 1872 Ornsld

(١) Paul : Ornsld. P. 130.

أسره . فهو جد مشبع بالمواطف الدينية المختلفة مما جعله أداة فعالة فى إعلاء الأخلاق وترقية أمرها . ويبحث هذا الكتاب فى المسائل الدينية بحثاً جدياً منطقياً . فيبرهن بشتى الطرق على أن الديانة الحالية قد أفسدت التعاليم الجليلة الكثيرة التى جاء بها السيد المسيح منذ القدم .

وكانت رغبته تنحصر فى منح الناس الحرية الكافية لتمييز الأشياء وتمحيصها . فقد رأى بعينيه التقلب والتطور الذى أخذ يدب دبيبه فى روح الدين وتعاليمه فلم يستطع احتمال ذلك . أصبح الناس لا يؤمنون بالمعجزات ولا بوحى التوراة ؛ وقد خالف علماء الدين بقوله إن التوراة كتاب أدبى أكثر منه كتاباً علمياً . وليس من واجب الدين إلا أن يهتم بالأخلاق التى تكون ثلاثة أرباع الحياة الإنسانية . وصدق الديانة يجب أن يدعم بالتجارب العملية أكثر من الحقائق الفلسفية والأخلاقية . وخلاصة القول فقد عرف الديانة بقوله إنها الأخلاق تحفزها العاطفة والإخلاص .

أما إيمانه بالله فكان يختلف عن عقائد أهل عصره فلم يعتقد بشخصية الإله وأنه شخص له صفات تخالف صفات البشر ؛ بل قال بأنه القوة السرمدية الأبدية التى تسيطر على هذا الكون . وتظهر لنا عقيدته هذه من جميع الفقرات التى اقتبسها من التوراة وسجلها فى كتاباته فكان يغير لفظة الرب بلفظة الخالد .

والإيمان يجب أن يشمل جميع ما جاء به العهد الجديد وإلا فلا حاجة للناس بالإيمان ببعض أجزائه ونكران البعض الآخر . وأما عقيدة الإعتراف فيجب أن لا توضع بمنزلة عقيدة المعمودية ، وإذا كان الناس لا يعتقدون الإعتقاد التام بجميع ما جاء فى التوراة وبصدق الرواية والزمان والمكان كان إيمانهم بالسيد المسيح أشبه بالخرافات والأمور الخيالية .

أما ثالث كتبه الدينية فهو كتاب « مقالات فى الكنيسة والديانة» . ويبحث هذا المؤلف فى وصف أحد المطارنة الملقب بمطران بترلفهو يقول عنه «إن هذا المطران لم يعترف بوجود الإله فحسب؛ بل بوجود الحياة المستقبلة ، وقد عرض للناس دوافع خطأ الإنسان وأغلاطه بطريقة دقيقة لا تقبل الشك والنكران . والعقل هو الحاكم الوحيد الذى يلجأ إليه الإنسان فى فهم دقائق الأمور وخفاياها فهو الأداة الوحيدة التى يمكننا بواسطتها تفهم جميع العقائد حتى وجود الإله وحقيقته[1] » .

(١) Psul. Ornsld : P. 144.

وفى مقدمة هذا الكتاب نرى أرنولد يوضح عقائده بشكل جذاب فهو يقول : « إنى لأعتقد بخلود الديانة المسيحية نظراً لصدقها وصراحتها الطبيعيين . وإن هؤلاء الناس الذين اعتقدوا تخلصهم من حملها والإيمان بها تبعاً للعقائد الزائفة التى بشر بها الكثيرون من رجال الدين سيرجعون إليها مرة ثانية ويدرسونها درساً أوفى ، وأشد دقة وتفهماً[1] » . فكان يؤمن ببعث روح جديدة تطهر الديانة مما لحق بها من الأدران والأوساخ . وهذه الفكرة السامية تجاه الديانة المسيحية لتظهر لنا جلياً فى فقرة ثانية كتبها حيث يقول : « إن الكنيسة يجب أن تعتبر كمؤسسة وطنية تسعى إلى إعلاء شأن الوطن ورفع كلمته . فمن واجب الناس على اختلاف طبقاتهم أن يتمنوا لها التقدم واطراد النجاح[2] » .

والهدف الوحيد الذى سعى إليه أرنولد فى جميع مؤلفاته هذه وخاصة كتابه « الأدب والعقائد » كان لاسترداد التوراة مكانتها القديمة وإعلاء شأنها بين طبقة العامة الملحدة . وهذا الهدف كان سامياً فى حد ذاته ، ولذا فإن تحقيقه كان من السهولة بمكان عظيم . وقد أشبعت كتاباته هذه من نواح عدة مؤلفات الكردينال نيومن الكاتب الإنكليزى الشهير . فعرف أن الشك فى المعجزات يقود الناس حتماً إلى إنكار جميع الحقائق السماوية .

رأى أرنولد جمهرة المتعلمين من قومه يخرجون عن عقائد التوراة وأحكامها فحاول إرجاعها إلى قلوبهم بإقناعهم أن مكانتها فى عقول الناس يجب أن لا تبنى على أساس المعجزات التى جاء بها أو على العقائد التى استخلصها الكاثوليك والكلفنيون من ثناياها بل إلى أدبها السامى وإلى روح النشاط والحماسة التى يبعثها السلوك الحسن والتضحية وحب الإنسانية .

فالديانة فى رأيه لم تكن إلا الأخلاق تبعثها العاطفة وطهارة النفس ، والرجل الورع هو الكريم الخلق الحسن الشيم . واندفاعه هذا فى طريق الإخلاص يجب أن يكون ناتجاً عن عقيدة راسخة هى عقيدة العاطفة والميل . أما إذا كان الرجل مضطراً إلى اتباع سنن الأخلاق وتعاليمها فهو ليس بخير كريم . إذ أن الرجل الكامل ، هو من كان مندفعاً برغبته وميوله لا تحت تأثير الطاعة والخنوع .

(يتبع) **خيرى حماد**

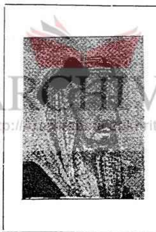
(١) Psul. Ornsld : P. 144.

(٢) Ossay m Chwch Qnd Ribgion : Cqnold. P. 37.

عاهـل الجزيرة
في وادي النيل
للأستاذ محمود حسن إسماعيل

حادٍ من البيد هزّتني قوافله ... والنيلُ يصغي إليه أو يساجله
يلقي الغناء حجازياً فتحسَبُه ... تهجّد الفجر أوّابٌ بواصله
أصغت له مصر ، فاهتاجت سرائرُها
وللديار هـوى تهفو شواغله !
معلّمٌ كيف يُشجي الرمح! كيف لها
تعيد تسبيح «داود» فواصلُه!
وكيف تخطف سحر الشمس نغمته
فينتهي كل ما قصته «بابلهُ»
وكيف بالجبل الراسي مزامرُه
تشجيه حتى يريد الخطو كاهله
خرت لموكبه الوديان ساجدة
إن الصحارى أذان ، وهو قائله !
وللجزيرة وحيٌ في قيـاثره
كادت تضيء به الدنيا أناملُه
مهد النبوات أرض النور موطنه
وفي مزار الهـدى قامت منازله
سارٍ يهاب الضحى أنوار خطوته ... ويعلمُ الفجر أن الركبَ حاملهُ
وتسمع الطير عنه ، وهي شاردة ... فإن دنا سربُها قرّت بلابله
حَبٌّ ، وماءٌ ، وأعشاش ، وأمنُ حمى
فيـه الغريب أخٌ ، والضيف آهلهُ
سألته : لمن الركبان سائرة ؟ ... وللكريم اهتزاز إذ تسائله !
فقال إني من الشرق الذي سطعت ... ونورت منـه للدنيا رسائله
من بقعة عمَدُ الاسلام في يدها ... سواعد الدهر يعييها تطاوله !
مشى الرسول عليها فاغتدت حرما ... يجرد النفس للتسبيح داخله
وشع منها كتاب الله ، فهي حمى ... لا بد يسجد قبل الخطو نازله
بنى عليها ، وشاد الملك معتلياً ... على المهابة ، وسيف عز حامله

عرش (الجزيرة) مركوز بقبضته ... وفوق حديه أجرى البأس عامله!
تلألأت منه فوق النيل زاخرة ... رُؤى جبينٍ أضاءته فضائلُه
نورُ الشهادة تبديه أسرّتُه ... وهالةُ المجد تضفيها حمائله
وحوله من سماء البيد شارقةٌ ... من البداوة تذكيها شمائله
عطر النبوات نضّاح على يده ... كأنّ خلداً زكَتْ فيه خمائله
وفوق عينيه للتوحيد بارقة ... شعّتْ ضياء بما تطوى دخائله:
شهادتان هما للروح مرفأة ... فيهما منارُ الهدى، فيها مشاعله!
البيرق الأخضر الرفراف ضمهما ... هدْياً، ونوراً، لمن زاغت دلائله!
«الله أكبر» في الشطين هاتفة ... كطير مكة إذ هاجتْ زواجلهُ
رأيتـه وضفاف النيل تحمله ... والنيل يهتزّ للأبطال ساحله
في موكب تفرح الأسلام عزته ... وتلفتُ الشرق للماضي مخايله!



وتدهش الدهر إرهاباً بضجّتها
ما خلّفته على الوادي جلاجلهُ
ملكان في مفرق الدنيا ضياؤهما
عالي الركاب ، رحيب الخطو، جائله
قاما على عزة للشرق شامخة
ومورد للعُلا فاضت مناهله
كانا شعاعين للأيام في زمن
كانت تغطّ على ليل مجاهله
هـذا على جبهة الصحراء صولجه
يفني الجبال إذا هبّت تصاوله
عالٍ مع الشمس ، طواف بسيرتها
على الوجود نداه أو جحافله !
وذاك تسحر كبرُ الخلد هيبته ... بما بنى لبني الدنيا أوائله
على محارب من نهر ومن شجر ... أسحاره قانتاتٌ أو أصائله
كم كبّرت لأذان الفجر نخلته ! ... وسبّحت بهوى الباري سنابله!

* * *

يا سائران على نور ، وخلفهما ... قلب من الشرق تضنيه مشاغله
مُرّا عليه بسحر في أكفكما
داني التداوي ، قريب البُرء ، عاجلهُ
براحةٍ في حواشيها وصفحتها ... طبُّ الشعوب حفيّ النور مائله
مازال «رضوى» يناجيها ويذكرُها
عهداً إلى أبد الدنيـا يزامله

روته للشرق كثبان مهللة   وسطرته مواثيقاً جنادله

عهداً من الحب هز الطود فارتجزت

به الخيام ، وغنته قبائله !

ليث البوادى وحاميها وسيدها   تاريخ سيفك إنشاد تواصله

ضممتها وعصبت البأس فى يدها   وكنت غيثاً تناديها سوابله

تعلقت بك حين الركب قال : هلا

وأوشكت بخطى النجوى تناقله

وحين يممت كاد البحر لجته   تغدو بساط فلاً ، غنت قوافله !

ركبت بيضاء بالأرواح دارعة   جنان مصر لها تهفو بلابله

أحبابك ارتقبوها منذ ماسبحت   «فاروق» والنيل والوادى وآهله

جرى النسيم سعودياً بجنته   وللرياض هفت شوقاً هوادله

«عبدالعزيز» إليك الحب ، يدفعه   واد ترفرف بالبشرى خمائله

حيتك منه سماء شاركته هوى   بالغيث يفتر فى الشطآن وابله

تحية البيد ساق الله فرحتها   على يديك بشيراً أنت حامله

حار العباد أنجدىٌّ هواؤهم   والقطر والريح أنسام تزايله

أم أنها فرحة الإسلام سار بها   ركب المليكين فى شوق بعاجله ؟!

عبير يثرب تذكيه مطارفه   وخيلة العُرب تحكيها صواهله

هذا أذان العلا يا شرق ! فاتحة   يراع منها غوى القلب غافله !

ضيف الجزيرة ، لا وصفاً ولا حلما   جنان مصر جنان أنت نازله !

أخوك «فاروق» راعيها وعاهلها   وأنت فيها أخ طابت منازله ! !

آواخر الخريف

« فيك اختفى سر الربيع كما اختفى
فى جنح أمسية جناح صباح »

للأستاذ ادوار حنا سعد

طير مروعة وخفق رياح   وخمائل مهجورة الأدواح

صفراء عاطلة تجرد عطفها   من ورد منطقة وزهر وشاح

طاف التجهم والذبول على الربى   بعد الربيع الناضر المراح

فرنت لماضيها الوضىء ، وأسبلت   تبكيه أنوارا وطيب نفاح

تهتز راعشة وتذرف دمعها   ورقا ينوح على رحاب الساح

يزجيه خفاق الرياح كساحر   تزجى لديه مواكب الأشباح

وعلى الأصيل حلى سحاب أبيض   متناثر متموج سباح

فكأنه زمر القطيع تفرقت   ما بين أودية وبين بطاح

وكأنه بيض الزوارق هومت   أرخت أعنتها يد الملاح

فاذا تواكب جمعهن وركمت   سود الغمائم فى وضيء نواح

غالت بقيات النهار وغيبت   من ضوئه المترفق الوضاح

كخريف آلامى وليل مواجدى   وغيومهن وسيلها المجتاح

حجبت ضيائى واستباحت نغمتى   وطحت بزهر مطامعى وطماحى

أقبلت تغنى الزرع كى يحيابه   وببذره زرع بعيد رواح

إن كنت شردت الطيور فإنما   لتزدننا فى العود سحر نواح

أو كنت حجبت الربيع وخمره   فلكى تعتق من شهى الراح

وتزيد من سحر الأزاهر والسنا   وجنى الرياض وهتفة الصداح

فيك اختفى سر الربيع كما اختفى   فى جنح أمسية جناح صباح

فرحة الحب (*)

للشاعر حسين محمود البشبيشى

ما بال ثغرك ضاحك البسمات   ما بال قلبك راقص النبضات

قد كنت والأحزان فى ليل الأسى   تسرى وحيداً حائر النظرات

واليوم من أحياك ؟ من بثّ المنى   فى جانبيك وضيئة القسمات

من ذا الذى أجرى الحياة خواطراً   تنساب من عينيك مؤتلقات

فكأن فيض شعاعها أنشودة   أبديّة الأصداء والنغمات

وكأن قلبك نغمة سكرى الهوى   من خمرها الروحى والكاسات

وكأن روحك ومضة أنوارها   فتن الجمال وفرحة النشوات

ماذا بقلبك ؟ ... أى سرٍّ لم يزل   ينساب فى جنبيه كالنسمات

.. الحب ! ما أحلى الحياة إذا جرت   أيامها نشوى من الصبوات

لمح الفؤاد جمالها ... فسمى لها   شوقاً يذيب الروح فى الدعوات

وجرى النشيد منغماً بغرامه   ثملا من البسمات واللفتات

وشدا فطار القلب من أضلاعه   نغماً يبث الحب فى الصدحات !

ومضى يحلق فى سماء غرامها   لهفان مشتملاً من اللهفات

فى كل صبح باسم اللمحات   يرنو وفى عينيه شوق عاتى

ويكاد يهتف فى الطريق متى ؟ متى ؟   يا صبح تقبل فتنتى وحياتى

حتى إذا ابتسم الطريق وأشرقت   جنباته من رقة الخطوات

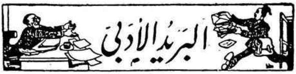
وهفا الفؤادُ يكاد يسبقنى إلى   محبوبتى ليبوح بالحرقات !

أسرعت والأشواق تصرخ فى دمى   والحب فى عينى وفى نبراتى

وهتفت .. ما أحلى صباحك يا منى   نفسى ويا قلبى وسرّ حياتى

وأكاد من فرط الغرام أغار من   قلبى ومن عينى ومن خطراتى

(*) من ديوان ألحان قلب الذى صدر فى ٢٠ يناير .



فضيحة . . . فمن المسئول ؟ !

ليس لها اسم إلا « الفضيحة » ، وقد وقعت مع الأسف فى استقبال العاهل العربى المظيم ، الذى تهيأت مصر لاستقباله بما لم تستقبل به أحداً من قبل ... فمن يا ترى هو المسئول ؟

لقد وددت أن أسكت حتى تنتهى الزيارة الكريمة ، ولكنى خفت أن تتهم مصر فى ذوقها فى حين أنها بريئة ، وأنها « عملة » ذهن عامى كليل . ولا بد أن كثيراً من الضيوف الكرام قد لحظ هذه « الفضيحة » ، فمن حق مصر أن أبرئها من « عملة » هذا الذهن العامى الكليل !

فى مصر شعراء والحمد لله — فلم تعقم بعد — وشعور هؤلاء الشعراء فياض بالحماسة والحب والتكريم للعاهل العظيم ... ولكن ذهناً عامياً كليلا فى محطة الإذاعة ، أو فى غيرها ، أراد أن يختار قطعة تغنيها مطربة الشرق العربى « أم كلثوم » ، فلم يجد أن شعور مصر الدافق كله يستطيع أن ينشئ قطعة مناسبة لهذا الغرض الكريم ، فبحث وبحث حتى وجد قطعة للمرحوم شوقى بك (قيلت فى مناسبة المولد النبوى الشريف) ، فاختار أن تغنيها لتحيى بها الملك العظيم .

ولكن القطعة — وهى فى مناسبة خاصة — لا تحوى نصاً صريحاً يتفق مع المناسبة الحاضرة ... وهنا يتفتق ذلك الذهن العامى الكليل عن حيلة طريفة ... يستدعى شاعراً معاصراً هو الأستاذ محمد الأسمر لينظم أبياتاً تلصق بأبيات « شوقى » ، وتنى بهذا الغرض الجديد !

يا للذكاء ! ! أيجرؤ ذلك الذهن العامى على اتهام الشعراء المعاصرين أجمعين بأنهم لا يستطيعون الوفاء بمناسبة حاضرة كريمة تهز شعورهم وشعور المصريين أجمعين ؟

وإذا كان قد قدر عليه القدر (كما يقولون فى العامية) ، ولجأ إلى شعر قديم يستوحيه ؛ فإما أن يجده وافياً بالغرض ، وإما أن ينصرف عنه ، بغير هذا الترقيع الذى لا أدرى كيف أسميه !

وتشاء المصادفات أن تمضى « الفضيحة » إلى نهايتها ، فتأتى الرقعة الجديدة — على غير مألوف الشاعر الذى قبل القيام بهذه المهمة العجيبة ركيكة مهلهلة ضعيفة ، لا تتسق مع الأبيات الأصلية معنى ولا مبنى !

ثم يأتى التلحين رديئاً إلى الحد الذى يقضى على الصوت الغنى الرخيم ، فلا يكاد يبين !

من المسئول عن هذه الفضيحة ؟ وهل يصلح مثل هذا الذهن العامى الكليل للاشراف على مثل هذه البرامج الخاصة بمناسبة عظيمة لا تعرض كل حين ؟ !

سؤال يوجهه الأدب والذوق والكياسة للمسئولين !

سيد قطب

الأستاذ النشاشيبي في مصر :

قدم القاهرة إمام العربية الأستاذ المحقق محمد إسعاف النشاشيبى وتبوأ الصدر من مجلسه المشهود فى الكنتنتال ، فأقبل عليه عارفو فضله وعشاق أدبه يرحبون به ويستفيدون منه . فأهلا وسهلا بحجة الإسلام وعمدة الأدب .

فى قصيدة الغزالى :

نبهنى إلى ما نشرته « الرسالة » الغراء فى عددها رقم ٦٥٣ تحت هذا العنوان الصديق الفاضل ثروت أباظه ، وهو يواسينى فى غمرة الأسى على والدى — ندّى الله مضجعه بفيض من رحمته ورضوانه — ثم عاد — أمتعه الله بأبيه — فأثار هذا الموضوع بعد أن رجعت إلى عملى فى مصر ، فتذاكرنا معاً ما بقى بذهنى من علمى العروض والقافية ، أيام دراستى فى الأزهر ودار العلوم .

والأستاذ رضوان يذكر أن صاحب (الشافى فى علمى العروض والقوافى) قسم السناد ، ثم مثل لسناد التأسيس بهذا البيت :

يا دار مية اسلمى ثم اسلمى ۔ بخندف هامة هذا العالم

فإهمال ألف التأسيس مشاهد فى كلة (اسلمى) ، ويوافقنى الأستاذ على أن البيتين المشار إليهما فى قصيدتى ليسا من قبيل هذا البيت . والمثال كما يقولون مصدر القاعدة .

وفى بريد الرسالة الأدبى كلمة لكاتب فاضل يخطىء فيها الأستاذ رضوان ويذكر أن فى البيتين سناد الإشباع لا سناد التأسيس فما رأى الأستاذ رضوان ؟ إنى لأرجو أن ينفى ما ذهب

إليه صاحبه ، كما نفى صاحبه ما ذهب إليه وبذلك يخرج البيتان في عافية .

وأحب أن أهمس في أذن الأديبين الناقدين أن كلمة (الخطأ) التي وردت في نقدهما فيها كثير من التجوز ، فلم يقل أحد من العروضيين إن هذا أو ذاك خطأ ، ولكنه على حد تعبيرهم (خلاف الأولى) .

وإني لأشكر للاديبين غيرتهما ، وحبذا أرزق سعة النفس والوقت أعدهما ببحث مستقل أستعرض فيه سنن الشعر العربي في مختلف عصوره لدفع هذا الزعم الذي يدفع الناقد لمثل هذه اللفتات .

والشعر مصدر ما وضعه العروضيون من قواعد ، ويا ويل الشاعر من العروضيين

أحمد عبد المجيد الغزالي

١ — **شعر حماد :**

جاء في المقالة الخامسة من مقالات (حماد الراوية) العدد (٦٥١) عند الكلام على انتحال حماد « وإنما الذي به النحل لا الإنتحال » أن شعره (يميل إلى النتانة والركة ، ولم يبلغ من الجودة ما بلغه شعراء الجاهلية حتى تختلط أشعاره بأشعارهم) . وجعل ذلك أحد أوجه ذكرها لأبطال روايات مشهورات عن ثقات ، واستدل عليه :

١ — بنقل أبيات لحماد استهدى بها جبة من بعض الرؤساء . أولها (إن لي حاجة فرأيك فيها) .

٢ — بضبطه (فرأيك) بالرفع والتحشية عليها بأن حماداً (يريد أن يقول : فما رأيك فيها) .

٣ — بنقل أبيات جزلة منسوبة إلى حماد والإشارة إلى أن قائل تلك لا يقول هذه .

وأنا أقول :

١ — إن أبيات حماد في استهداء الجبة ، ليست غثة ولا ركيكة بل هي أبيات بلينة . والبلاغة وضع الكلام في موضعه ومطابقته لما تقتضيه الحال ، وتلك الحال لا تقتضي إلا مثل هذه الأبيات ، ولو ساقها جاهلية فخمة غريبة اللفظ بدوية الأسلوب ، لكانت باردة غثة ، لأن لكل مقام مقالا .

٢ — أما (فرأيك) فالخطأ في ضبطها ، جر على حماد عارها وإنه لبرىء منه ، وإنما هي (فرأيك) بالنصب . وهذه من قبيل (زناه لخده) التي كنا تكلمنا عنها ...

٣ — أما إن الذي يقول الشعر الخفيف الفكه في موضعه ، لا يقول الشعر الجزل في موضعه ، فغير صحيح ، وهذا بشار يقول (ربابة ربة البيت) الأبيات وما تمنعه أن يقول (إذا ما غضبنا ...) وبينهما أكثر مما بين قطعتي حماد ، وشوقي صاحب المعجزة البيانية (قم في فم الدنيا وحي الأزهرا) هو صاحب (الحيوان خلق له عليك حق) وناظم (تلك) الأنشودة لجمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٢٩ .

وما شاعر في الدنيا ، ولا كاتب ولا متكلم يهزل كما يجد ، ويقول لصديقه مؤنسا ما يقول لعدوه هاجيا ، ويتغزل بأسلوب الفخر ، ويخطب يوم الممة بمثل ما يناغي به الحبيب ليلة اللقاء ، ويرقص وليده بمثل أراجيز العجاج ، وهذا أبو نواس في خمرياته غيره في طردياته ، والرصافي في أخلاقياته ، أين منه الرصافي في مجونياته ، ولولا أن هذا أمر قد فرغ من تقريره نقاد العرب والافرنج من زمن طويل ، لسردت مثالا عليه من شعر كل شاعر !

٢ — **سادة الكتاب :**

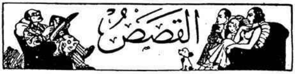
هذه حاشية على العمود الثاني ، من الصفحة (١٤١٨) من الرسالة (٦٥٢) :

وأنا أقول : إن سادة الكتاب (عندي) خمسة : هم الذرى وهم القمم ، وإن كثرت من دونهم الهضاب والجبال : الجاحظ في الأدب ، وأبو حيان في الفكر ، والغزالي في التحليل النفسي وابن عربي (محيي الدين) في التصوف ، وابن خلدون في الإجتماع هؤلاء الأئمة المجتهدون ، وأما الآخرون فأكثرهم مقلدون . وأستاذنا النشاشيبي أوسع مني علما ، وأصح حكما .

٣ — **بين قوسين :**

لتفهم كلتي في بريد الرسالة (١٤١٨) ضع كلمة (عنوانه) في السطر الثاني بين قوسين ، لأنها جاءت للتفسير لا للتقرير .

علي الطنطاوي



من ذكريات الشباب
اجترار
للأستاذ حبيب الزحلاوى

- ٢ -

حكايتى أيها الأصدقاء تدور حول الأثر الذى تركته حوادث الجهاد الوطنى فى نفسى ، لا حول أبلغ حادث حدث لى .

كنت أتوقع عندما عينت ضابطاً فى الجيش أن ألقى مشاكسة من زملائى الفرنسيين ، وتعالياً على الضابط « العربى » فوطدت النفس على التمسك بالكرامة مع السلاسة واللطف ، فجحت بعض النجاح فى السير على منهاجى ، وكنت أفشل فى قطع ألسنة أولئك الضباط عن القدح فى قومى وسب « السوريين القذرين » ولاسيما حينما كانت تضمنا مائدة شراب ، ولم يكن يند عنهم إلا ضابط من رتبتى كان يقف دائماً فى وجه أولئك القادحين فيصدهم عن المضى فى طعن الأمة العربية إكراماً « لزميلنا الضابط الكيس والخلصاء الذين عرفناهم من السوريين » فكان أولئك الضباط الأجلاف ينحرفون عن الموضوع ، ناسبين ذلك إلى ما يلاقون من الشعب من كراهية وبغض ، وكان ذلك الضابط ، نضر الله وجهه ، يدافع عن حق السوريين وينعت حكام قومه بالطيش والهوج فى مد حكمهم وبسط وأخبار رجال السياسة البعيدين عن مواطن الخطر ، وأخبار إخواننا المهاجرين تصلنا منبئة بقيامها كلها متساندة متضافرة تعمل لجعل هذه الثورة هى الأخيرة للخلاص التام من الأجنبى المستعمر .

عملت ما فى وسعى لأقنع الأجناد الوطنيين تحت إمرتى أن نهرب بسلاحنا وميرتنا للالتحاق بإخواننا المجاهدين لتحرير الوطن ، وقبل انبلاج الصبح كانت دوابنا المثقلة بالأحمال على

سناد التأسيس :

فى العدد (٦٥٢) من أعداد الرسالة خطأ الأستاذ محمد محمود رضوان بيتى الشاعر أحمد عبد المجيد الغزالى وهما :

كأن به فى حلة الملك رافلا يخب بدنيا ليس يدنو لها مدى
عوالم هذا العصر أنت وسعتها بفنك لم تعجز لسانا ولا يدى

وقال إن الخطأ فيما يسميه العروضيون « سناد التأسيس » .

والحقيقة غير ما قال الأستاذ الناقد إذ أن « سناد التأسيس » فى البيتين السابق ذكرهما موجود وإنما الخطأ فى « سناد الإشباع » كما يقول أهل العروض ، وليس فى « سناد التأسيس » كما قال الأستاذ المفضال .

فحركة الدخيل فى الأبيات كلها بالخفض ، إلا فى البيتين المنقودين فإنها جاءت بالفتح ، وذلك ما يسمونه سناد الإشباع .

ومنى على الناقد والمنقود تحية وسلام .

عدنان أسعد

حول سجون بغداد :

أرجو ، أن يتفضل من كان لديه أخبار تتعلق بسجون بغداد وما يتصل بها — لم أذكرها فى مقالاتى التى نشرت فى هذه المجلة — فينشرها فى هذا البريد الأدبى ، وله منى الشكر سلفاً .

صلاح الدين المنجد

بضعة كيلو مترات من مرابط الثوار ، والفضل في هربنا يعود إلى زملائي الضباط الفرنسيين الذي أثقل « الحشيش » أدمغتهم تلك الليلة .

في منتصف ليلة من الليالي ، سرنا بطوائف منظمة من الثوار لنقطع الطريق على حملة من الفرنسيين جاءت لتطويقنا من ناحية الشمال ، بلغنا الموقع الذي قدرت أن الواقعة ستقع فيه ، ووزعت رجالي توزيعاً يوهم العدو بكثرة عددنا ، وأوصيت بعدم الاسراف في إطلاق الرصاص ليكون متواصلا ، ووقفت في مكان مرتفع مع بعض زملائي نرقب الموقعة وندبرها .

لم أر ولم أسمع في حياتي عن موقعة التزم رجالها ضبط النفس والعمل بإقدام وشجاعة وحزم كتلك الموقعة التي كانت كأن الصخور والمتاريس وأكوام الحجارة هي التي تتفجر فتطلق النار فتصيب الهدف ، لا رجالا مثلنا من لحم ودم .

أخذت الشمس تميل إلى الغروب ، ولم يتقدم العدو خطوة إلى الأمام ، ولم يتبين له آدميون يقاتلونه ، أم مردة وشياطين يصبون عليه الموت ، وبينما نحن في هذا الموقف ترفرف فوقنا أجنحة الشعور بالظفر على العدو وإفساد خططه ، وإذا بصوت من الخلف يناديني باسمي مقروناً بصفة حبيبة إلى قلبي « يا صديقي العزيز ، لا تظن أني أغتالك غدراً بل أقتلك دفاعاً عن قوى وشرف العسكرى » وصوب بندقيته وسددها .

يكفي أن أقول لكم يا إخواني إن خمس بندقيات صوبت في لحظة واحدة إلى صدر « صديقي العزيز » وإلى من كان معه من ضباط ، وأن رصاصتي كانت الأسبق إلى قلبه .

بكيت ذلك الصديق ، وما برحت أبكي سجاياه وشمائله ، لأنه إنسان مهذب .

سأل واحد من المستمعين بتلهف عن مصير تلك الموقعة فأجاب المتحدث بصوت تخنقه العبرة الجامدة ، « لقد تولى رفاقي إدارتها بنجاح حتى ارتد العدو أما أنا فقد واريت قتيلي التراب » .

* * *

من يراقب أولئك الأصدقاء يؤلفون دائرة في وسطها نرجيلات تكركر ، وأنفاس تطلق في الهواء ، يحس بأن لا فارق بين المتحدث والسامع في اعتصار أحداثه من قرارة نفسه ، وأن الكلمات المهموسة تبلغ مكمن الضمير وحنايا الوجدان .

— ٤ —

أحدثكم أيها الرفاق عن حادثين متناقضين يسبقان أحداث الثورات الداخلية ، لعلي أعيد بهما نضرة الحياة إلى وجوهكم وقد فنيت فيها البشاشة وغاضت مياهها .

وحكايتي لا بد لها من مقدمة أقرر لكم فيها ، أن المبادىء التي يصطنعها أصحاب الأغراض الوطنية ويتخذها الشبان مثلا عليا ، ليست إلا سطورا مسجاة في صدورنا ، أو جثثا مدفونة فيها ، قيمتها في الثرثرة عنها ، وهي على وجه التمثيل كالبخور الذي يطلقه المشعوذ ، أما تنفيذ المبادىء والعمل للمثل العليا ، أو العمل على الأقل ، في حيز غير بعيد عنها ، فليس في وسع الرجل أو الشعب الذي قضى عليه بأن يكون محكوماً ، ولا راد لقضاء القوة عليه ؟ ! !

ولبيان ذلك أقول : ألفنا نحن الطلاب العرب ، أيام كنا نطلب العلم في الاستانة ، جمعية اتخذنا لها القانون الذي قننه لنا أصحاب المثل العليا في الوطنية والقومية ، وأقسمنا بالله وبالشرف والوطن على تنفيذه بسلاحنا ودمائنا .

ساقتنا الدولة العلية التي كنا نعمل للخلاص منها ، والانعتاق من عبوديتها ، إلى محاربة دولة غربية كنا نؤمن آنذاك أن لا سبيل لنيل استقلالنا الوطني ، وتحقيق آمالنا القومية العربية ، إلا بمساعدتها إيانا .

وقفت ورفاقي نتحسس المبادىء المدفونة في صدورنا ، وإذا الأوامر العليا تستحثنا على التقدم والقتال ، وشعرنا بأن قوة جارفة من حديد ونار تجرفنا من الوراء إلى الأمام .

حاربنا ، أجل لقد حاربنا من قال زعماؤنا عنهم إنهم عدتنا للاستقلال ، وقاتلنا قتال المجاهدين في صفوف من قالوا لنا إنهم أعداء استقلال وطننا وقوميتنا !!!

لقد أنستنا الحرب إنسانيتنا وردتنا إلى أصولنا المتوحشة .

كنت في بداية الحرب ، وقد خفت ميدان القتال ، لا تفارقني الأشباح المرعبة ، والخيالات المزعجة لشخوص من كنت أزاحم يسقطون بضربة سيف ، أو بطلقة مسدس أطلقها من دون وعي ،

وما عتمت أن تأكسدت مشاعرى فصرت كالجزار ينحر الكبش وهو يكبّر .

صدرت إلينا الأوامر من القيادة بأن نحتفظ بمواقفنا مهما كلفنا الأمر ، وبأن نعمل على التقدم مهما بهظ الثمن . كانت المدافع تدوى ، والقذائف تحفر فجوات فى الفضاء فتكظم بزخمها نفس من يدنو من طريقها العريض ، ورغم ذلك كنا كالناجذ نتقدم فنحفر حفرة تتحول فى وقت قصير إلى خندق يقينا ويلات المدافع الرشاشة .

لم نكن نحفل بمن يستشهد منا ، أو يجرح فيتلوى كالطفل المنوص ، بل كان همنا أن نتقدم وأن نقى أنفسنا ، ونحتفظ بمراكزنا ، كأن فى ذلك منجاة لنا من موت يحوم فوقنا .

بالله يا أصدقائى من نزعة حب البقاء كيف تدفع بنا إلى الموت حباً للحياة ، كان الوجود بأكمله فى ناحية ، وكنت أنا وحدى فى الناحية الأخرى ، فلو فنى الوجود بمن عليه وبقيت أنا وحدى لكنت الوجود بتمامه وكماله ، ولم أكن أفكر ساعة الموقعة إلا فى شىء واحد هو « أنا » .

لا أدرى كيف لم تغب شمس ذلك النهار ، لأن الجو كان منارا بآلاف من ومضات المدافع وشرار البنادق فكان من مجموعها يتألف نور وضاء ساعد على مواصلة القتال .

لم يكن الزاد ينقصنا ، وأكوام الذخيرة تطمئننا على أن فى وسعنا الدفاع عن أنفسنا حباً فى البقاء .

أين الراحة ؟ كيف السبيل إليها والموقعة ما برحت تتطلب الدماء !! لقد ارتوت هاتيك البطاح بدماء المتقاتلين فلمن منهم تنبت الإصلاح يا ترى ؟ كنا نتقدم تارة ونتراجع أخرى ، هذه هى الحرب السجال ولكن متى تنتهى الموقعة أو تخمد نارها ؟

انبلج الفجر ، وأشرقت الشمس ، وأقبل الليل الثانى !! لم أعد أحس بحماس للحياة ، ولا بدافع إلى البقاء ، إنما أنا فى حاجة إلى النوم ، إلى نوم عميق طويل ينقذنى من نفسى ، إلى هروب من هذه النفس التى تحوطها عناية الله ، وينزل بها بلاء الإنسان .

يا للشيطان !! هل هناك تناقض بين غايتين غاية الله فى الحياة وغاية الإنسان فى إزهاق الحياة ؟

ألقيت بجسمى فى حفرة من هذه الحفر التى شققناها بمعاولنا وأظافرنا فصارت خنادق طويلة عميقة ، ألقيت مسدسى كأن لم يعد لى حاجة إليه ونمت .

كم ساعة قطع النوم من عمرى ؟ لا أدرى !! أقسم لكم يا إخوانى أن لو اتصل نومى بالأبدية لما قلت إلا أنه الراحة الكبرى ... ولكنى استيقظت . لقد أيقظتنى مياه غمرت الخندق وقد بلغ ارتفاعها فمى ، وقد أخذت امتصها مع التنفس وكدت أختنق من الغصة . نهضت كالكلب المبلول ، أنفض جسمى والسعال يكاد يخنقنى وكنت أرتعد من البرد ، وإذا بجماعة من الجند يصوبون فوهات بنادقهم إلى صدرى ، بمعت منها رطانة تنبهنى إلى أنى أسير .

عرفت بعد إذ بلغت مكان الاعتقال من زملائى الأسرى الذين جاءوا بعدى أننا لم نخسر تلك الموقعة ، ولم نفقد مراكزنا الأمامية ، ولكن حين شعر الأعداء بأعيائنا وبحاجتنا إلى الراحة ، خففوا ضغطهم علينا ، وعند ما طلبنا الراحة مستسلمين للنوم ، حوّلوا مجرى مياه النهر نحونا فغمرت خنادقنا وأغرقتها ، فنطس فيها من غطس غرقاً ، ونجا من الموت من أفاق من النوم وداهمته قناصة الأعداء ليلقى منهم الأسر كما لقيته أنا . ومن العجب العجاب أن حكومة الدولة التى أسرتنى ، بعثت بى إلى ميدان حرب جديد أقاتل فيه مع إخوانى من كنا نقاتل فى صفوفهم !! والفرق بين الدولتين أن العثمانيين ضنوا علينا بالاستقلال وأن الانجليز وعدونا به فصدقنا وعدهم !!! والأغرب من هذا ، أنى بينا كنت أحارب الأتراك بسلاح من الانجليز معار إلى الدولة العربية التى ارتجلتها السياسة ارتجالا ، التقيت عفواً بأخى الضابط يحافظ على الخط الحديدى الحجازى الذى انتدبت لنسفه بالديناميت ؛ وقد ساعدنى على إتمام مهمتى وعاد هو ورجاله معى لا كأسرى حرب بل كجنود بالجيش العربى ، جيش الخلافة العربية .

(يتبع) **حبيب الزحلاوى**